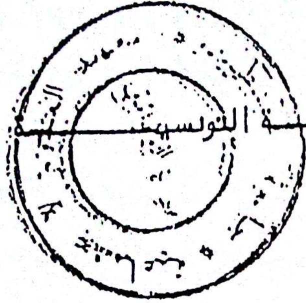
جامعة قسنطينة
معهد العلوم الاجتماعية
دائرة التاريخ



العلاقات السياسية الجزائرية التونسية

1830 — 1800

بحث لنيل دبلوم الدراسات المعمقة
في التاريخ الحديث

من تقديم الطالب : فيلالي السايح
تحت اشراف : الدكتور توفيق برو

السنة الجامعية : 1982 — 1983

معهد الله عزيزات

فهـــرس المحتـــوى

الموضوع	الصفحة

المقدمة

استرعى انتباهي أثناء دراستي لمقياس " تاريخ الجزائر في العهد العثماني " ، وأنا طالب في الليسانس موضوع العلاقات الجزائرية-التونسية في المجال السياسي التي اتسمت بالتوتر والصراع الدائم ، بالرغم من اشتراك الأيالتين في حركة النضال أو ((الجهاد)) ضد الدول الاوربية التي شملت اعتداءاتها سواحل المغرب العربي بأسره .

ورغم الهدف المشترك - الجهاد - ووشائج القربى ، والانتماء الى الى مقر (خلافة) المسلمين في اسطامبول ، الا أن سياسة البلدين تباعدت تباعدا تاما ، مذ ان انفصلت الايالة الاولى (تونس) عن تبعيتها للثانية (الجزائر) ونشأت بين البلدين مشاكل تتعلق بالحدود ومشكلة التزام حكام تونس بتسديد اتاوات سنوية معلومة لحكام الجزائر .

ولذلك نجد ان سبب الخلافات التي وقعت بين الايالتين - غالبا - تتمحور حول مشكلة الحدود ، والاتاوات التي كانت تسدد من قبل تونس للجزائر .

وقد التزم حكام تونس بتسديد هذه الالتزامات في فترات ضعفهم ، الا ان الصراع نجده يشتد ويقوى كلما حكم تونس باي قوى .

واذا كان حكام الجزائر حاولوا طيلة الحكم العثماني في الجزائر ابقاء هذه التبعية ، وفرضها ان لزم الامر بالقوة ، وذلك بتدخلهم في شؤون تونس الداخلية ، وتولية حكام موالين لهم ، وخاضعين لشروطهم .

فان حكام تونس بدورهم كذلك حاولوا مرات عديدة التدخل في شئوون الجزائر ، وقد بلغ الصراع بين الايالتين أوجه في نهاية القرن الثامن عشر ، ومطلع القرن التاسع عشر .

أما سبب تحديدي لهذه الفترة (1800 - 1830) فذلك يرجع الى عدة عوامل لما تميزت به هذه الفترة من الحروب الخارجية التي خاضتها الجزائر ضد الانجليز ، والامريكان والفرنسيين ، والتونسيين ، وغيرهم .

وحروب داخلية كثورة درقاوة في الغرب الجزائري وشرقه .

والتنازع على السلطة بين الطائفة التركية نفسها ، سواء على مستوى السلطة المركزية أو على مستوى الاقاليم . وكان ضحية هذه الحروب الداخلية والخارجية الرجل العادى من الفلاحين واصحاب المهن ، لانه هو المسدد لهذه الضرائب ووقود للفتن .

ولذلك فان هذه الفترة في نظرى كانت بالنسبة للجزائر فترة اختضار سياسي واقتصادى ، وحتى عسكرى — خاصة بعد حملة اكسموث سنة 1816 وتحطيمه للاسطول الجزائرى اللهم الا اذا استثنينا بعض المحاولات التي قام بها كل من الداى علي خوجة والداى حسين من اجل اعادة بناء قوة الجزائر ، لكن يبدو ان هذه الاصلاحات ان صح التعبير اتت بعد فوات الاوان .

اما بالنسبة لتونس فاننا نجدها تمر بعصر ازدهار واستقرار نسبي . — خاصة في عهد حمودة باشا الذى اولى كل اهتماماته للخروج من اطار التبعية لحكام الجزائر ، وسخر كافة امكانياته لهذا الغرض .

ويلاحظ مدى استغلال الاوربيين لهذا الصراع ، وزرعهم بذور الشقاق والنزاع بين البلدين ، ولعل ذلك كان من بين مخططاتهم لكي يسهل عليهم الاستيلاء على قطر بعد آخر . وقد رأيت ان أتناول هذا الموضوع ((العلاقات السياسية الجزائرية التونسية)) محاولة مني اولا لدراستها وتبيان خلفياتها واسباب توترها الدائم ، وبالتالي يمكن تقييمها ، وثانيا ان هذا الموضوع لم تفرد له دراسة مستقلة — حسب اطلاعي — وكل ما كتب عن هذا الموضوع لا يتعدى السرد لوقائع الحروب التي دارت رحاها بين البلدين دون التعمق في دراسة خلفيات هذا الصراع المستمر بين الايالتين .

وقد قسمت بحثي الي مقدمة واربعة فصول ، تناولت في الفصل الاول الاوضاع العامة في الجزائر خلال فترة 1800 — 1830 حاولت فيه ان اتلمس اسباب تدهور الوضع السياسي بالجزائر في نهاية الفترة المتشابهة سواء كانت هذه الاسباب داخلية ، كفساد الادارة ، واجهزة الحكم ، وتدهور الانكشارية كنظام متميز ، والعلاقة الظالمة والتعسفية التي كانت تربط بين الحاكم والمحكوم .

أو خارجية ممثلة في الحروب التي خاضتها الجزائر ضد الدول الاوربية المسيحية ونشاط قراصنتها في البحر الابيض المتوسط، مما ادى الى انخفاض موارد البحر بالنسبة للجزائر وتقلص نفوذها البحري.

كما تناولت بالدراسة في هذا الفصل الوضع الاجتماعي والاقتصادي الذى كانت تمر به الجزائر الذى لم يكن احسن حالا من الوضع السياسي.

أما الفصل الثاني فقد خصصته لدراسة الاوضاع العامة في تونس في نفس الفترة حتى يمكن اجراء مقارنة بين الايالتين، وبالتالي يمكن فهم سير العلاقات السياسية بينهما.

فتناولت الظروف التي أحاطت بتولي حمودة باشا الحكم، واهم الازمات الداخلية والخارجية التي صادفته، ثم تدهور الوضع السياسي فجأة بعد موت هذا الباي وتصفية الحسابات التي مارسها محمود باي ضد خصومه السابقين والذين رافقوا حمودة باشا اثناء حكمه، مما ادى الى فساد جهاز الحكم خلال فترة توليه الحرض.

اما الوضع الاجتماعي فقد كانت تسوده الحياة الطبقية، وممارسة تجاوزات عديدة من طرف البايات وعمالهم ضد الجماهير الشعبية.

ولم يكن الوضع الاقتصادى احسن حالا، بالرغم من ان تونس اشتهرت خلال تلك الفترة بتجارتها وثروتها الفلاحية والحيوانية الا انها كانت محتكرة من طرف البايات يتصرفون فيها تصرف الحكم المطلق وكان نصيب الطبقات الفقيرة منها ضئيلا.

اما الفصل الثالث فقد عقدته لدراسة العلاقات السياسية الجزائرية التونسية، في المجال السياسي.

فبينت الحالة العامة للعلاقات السياسية بين الايالتين في نهاية القرن الثامن عشر، والربع الاول من القرن التاسع عشر.

وتعرضت لاهم الاسباب التي ادت الى المجابهة واعلان حمودة باشا الحرب ضد الجزائر، ثم رد فعل دايات الجزائر، وموقف الباب العالي من هذا الصراع،

للجزائر .

واخيرا موقف حكام تونس من الاحتلال الفرنسي للجزائر .

اما الفصل الرابع فقد خصصته للعلاقات الجزائرية التونسية في الميدان العسكري والحربي ، لانه - في نظري - صيغة من صيغ التعامل السياسي والدبلوماسي ففي حال فشل المفاوضات السياسية يصبح اللجوء الى الحرب البديل الوحيد ، ولذلك فقد تناولت في هذا الفصل مرحلة الاستعداد والتهيؤ - خاصة من قبل حمودة باشا - ثم فترة المجابهة العسكرية ، ثم اتيت على دراسة المعارك البرية والبحرية التي وقعت بين الايالتين خلال الفترة المدروسة .

نقد وتحليل لاهم مصادر البحث :-

* مذكرات الحاج احمد الشريف الزهار : ولد بمدينة الجزائر سنة 1196 هـ / 1781 م تولى نقابة الاشراف بعد وفاة والده ، وبعد الاحتلال الفرنسي ابعدته سلطات الاحتلال سنة 1832 فقصد تونس ، ثم رجع منها الى قسنطينة وتولى منصب الكاتب لدى الحاج احمد باى الى سنة 1837 تاريخ سقوط مقاومة الشرق الجزائرى بقيادة احمد باي ، فانتقل الى الامير عبد القادر الذى عينه في منصب كاتب سره ، الى ان سقطت مقاومة الامير فقصد مدينة فاس المغربية ثم عاد منها الى الجزائر وتوفي سنة 1872 .

ومذكرته تعتبر من بين المصادر الهامة التي لايستغني عنها الباحث الذى يبحث في تاريخ الجزائر خلال تلك الفترة ، وسجل لنا خاصة الاحداث التي كانت الجزائر مسرحا لها ، كما تحدث باسهاب عن كيفية تقديم الدنوش* وبعض الحروب التي خاضتها الجزائر ضد الدول المسيحية ، وعرض لسيرة حكم الدايات الذين تداولوا الحكم ابتداء من 1168 هـ /1754 م الى 1234 هـ / 1818 م .

---

* نوع من الجباية تفرض على البايلك ليوردالي الخزينة العامة بالعاصمة وهو نوعان : الدنوش الصغير يقوم بتقديمه الخلفاء مرتين كل عام ، والدنوش الكبير يقوم بتقديمه البايات انفسهم مرة كل ثلاث سنوات .

اما الجانب الذى يخص العلاقات الجزائرية التونسية ، فركز خصوصا على اسباب تدهورها ، ويرجع ذلك في نظره الى اقتناع حكام تونس عن تسديد ما عليهم لحكام الجزائر وأورد تفاصيل حول المعارك البرية والبحرية التي وقعت بين الايالتين خلال الربع الاول من القرن التاسع عشر .

اما موقف الزهار من هذه الحروب والمنازعات فانه عارضها بشدة ، وهو موقف دون شك - يترجم موقف فئة الاعيان والوجهاء في الجزائر من هذه الحروب .

ورغم ذلك فان مذكرات الزهار يعتريها النقص لاغفاله لبعض الوقائع التاريخية المهمة ، اضافة الى بعض الاخطاء التاريخية* .

* المرآة لحمدان خوجة : ترجمة محمد العربي الزبيرى ، والكتاب بوجه عام ذو أهمية كبيرة بالنسبة لاي دارس للفترة الاخيرة من الحكم العثماني ، فهو تاريخي سياسي اجتماعي ، إذ سجل لنا حمدان معلومات مهمة حول العادات والتقاليد ونظام الادارة .

يعتبر حمدان من المعاصرين للفترة التي ندرسها ، فقد زار تونس - كما ذكر - صحبة خاله سنة 1801 ، وتقابل مع حمودة باشا ، واستمع الى شكايته من تعسف ولاة الجزائر ضد تونس .

ويحمل حمدان مسؤولية توتر العلاقات بين الايالتين الى الجهاز الحاكم في الجزائر وكثرة الراغبين في منصب وكيل الجزائر بتونس نظرا لما يدره هذا المنصب عليهم من اموال - حسب قوله -

ويبدو ان هذا الحكم مبالغ فيه من طرف حمدان ، لان هناك اكثر من سبب ، ولعل ما ذكره حمدان من بينها .

---

* قام الشيخ أحمد توفيق المدني بتقويم هذه التواريخ في الهوامش التي ضمنها لهذه المذكرات أثناء تقديمه لها .

* مذكرات احمد باي : ولد احمد باى حوالي 1201 هـ ـ 1786 ، وتوفي سنة 1267 هـ / 1850 كرغلي عين بايا على قسنطينة 1242 هـ/ 1826 م.

ولمذكراته اهمية معتبرة ، لقد تحدث فيها عن موقف حكام تونس تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر ،كما تعرض فيها لظروف الحرب التي جرت بين الجيش الجزائرى ، والقوات الفرنسية ، ومقاومته ضد التوسع الفرنسي في الشرق وسقوط قسنطينة وعن اتصالاته بالباب العالي واستسلامه في الاخير الى الفرنسيين رغما عنه .

* احمد بن ابي الضياف (ت 1874) اتحاف اهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الامان اعتمدت على الجزء الثاني والثالث .

ويعتبر ابن ابي الضياف شيخ المؤرخين التونسيين خلال تلك الفترة ، لقد ارخ للفترة تاريخا دقيقا لا يستغنى عنه اي باحث يريد معرفة خبايا الاحداث التي عاشتها تونس اثناء ذلك .

ويعتبر قريبا من المعاصر للاحداث خاصة وان اباه كان يشغل مهمة كاتب لدى حمودة باشا . وشارك مشاركة فعلية في حرب تونس ضد الجزائر سنة 1807 . اما موقفه من المشاحنات والحروب التي كانت تقع بين الايالتين فنجده يحمل تبعة ذلك الى حكام الجزائر دون سواهم ، متناسيا دور حمودة باشا في ذلك . رغم انه يصرح ان من بين الاهتمامات الاولى التي ركز عليها حمودة باشا اثناء توليه الحكم هو استعداده لمحاربة الجزائر ((وهو الاهم حينئذ)) .

وتؤخذ المعلومات عنه بحذر خاصة في الفترة التي تولى فيها حسين باي الثاني 1824 ـ 1835 ، لان احمد بن ابي الضياف عين في منصب ديوان الانشاء ككاتب سنة 1827 ، فهو يعتبر بمثابة ولي نعمته ولعل ذلك نلمسه جليا في اهمال الكاتب ، او اشارته اشارة لا تفي بالغرض من موقف الباي التونسي السلبي إتجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر .

اضافة الى بعض الاخطاء التاريخية التي صححت من طرف المحققين وذكر بعض الاحصائيات المبالغ فيها كثيرا في بعض الاحيان .

* العنترى : فريدة منسية ، ومجاعات قسنطينة

وكلا الكتابين فيه سرد لتاريخ قسنطينة في آخر العهد العثماني ، وبداية الاحتلال الفرنسي للجزائر .

وقد اشار في كليهما الى موضوع العلاقات بين الجزائر وتونس ، وسرد المعارك التي وقعت بينهما خاصة وان قسنطينة ومنطقة الحدود بين البلدين كانت مسرحا لها الا ان مذكرات الزهار اشمل في معالجة هذا الموضوع مما كتبه العنترى ، وقد افادنا العنترى – خاصة – حول كيفية تعيين وكيل الجزائر بتونس ، حيث يجب ان تتوفر فيه شروط معينة تخص كفاءته ، كما ان لبروتوكول يقتضي ان يلبس لباس التولية على يد باي قسنطينة .

ولذلك يعتبر من اهم الكتب الوثائقية التي تناولت مادته هذه الفترة ، الا ان ذلك لا يعني الاكتفاء به وحده ، وذلك لان مؤلفه اقتصر على نشر المراسلات التي جرت بين قناصل فرنسا في تونس وحكومتهم دون التقارير العسكرية والمعلومات الاخرى التي كانت ترد على الحكومة الفرنسية عن غير طريق قناصلها بتونس .

وقد امدنا هذا الكتاب بمعلومات حول العلاقات الجزائرية التونسية خلال تلك الفترة وذكر ان الايالتين توصلتا الى عقد الصلح في اواخر ايام الداى احمد سنة 1808 .

كما افادنا باحصاءات مهمة خاصة تلك التي تتعلق بعدد الجيش التونسي الذى غزا مدينة قسنطينة .

Scanned by CamScanner

* (1) لكاتب مجهول ، استفدت منها في دراستي للجانب الاقتصادي في تونس،
سجل فيها الكاتب معلومات هامة في المجال الفلاحي وتربية المواشي ،
وكذلك الجانب الصناعي ، وسجل لنا بعض المقتطفات عن علاقات الجزائر
مع تونس في الميدان التجاري ، وقال ان أغلب المنتوجات التونسية في
طبرقة تمر الى الجزائر بطرق غير شرعية . كما لاحظ بأن تونس كانت
اكثر البلدان (البربرية) حسب تعبيره استقرارا ، ورد ... ذلك
الى الرخاء والامن والاستقرار الذى كانت تتمتع به تونس .
وذكر بأن التجارة في تونس كانت مقسمة بين القاصل الاجانب ، خاصة
اليهود ، وبين التجار الفرنسيين .
واورد مختصرا عن حرب حمودة باشا مع الجزائر ، وكعادة كل الاوربيين
في الختام يهول من قضية الاسرى المسيحيين لدى تونس والجزائر ، ويصف
معاملاتهم القاسية .

* الارشيف العام التونسي :- فيه مجموعة من الملفات تتعلق
بالمراسلات التي كانت تتم بين اطراف تونسية ، وجزائرية .
وقد عثرت في الملف رم 384 على مجموعة رسائل ارسلت إلى باي تونس كتلك
الرسالة التي بعث بها حسين داى الجزائر الى محمود باى تونس (2)
يعلمه فيها بأن افار من " جرابة " قدموا بمراكب محملة بالبارود والرصاص
والاسلحة الحربية وباعوها في الجزائر ، وطبيعي ان تثير مثل هذه الحملة
الشكوك وعدم الرضا من طرف حكام الجزائر .

---

(1) تاريخ التحرير في بداية الصفحة 12 جانفي 1315 ، ويوجد تاريخ آخر في أخر هذه
المذكرة ، باريس 1819/1/12 ، ويبدو ان التاريخ الاخير هو تاريخ نسخها
أما التاريخ الاول هو تاريخ كتابة هذه المذكرة .

(2) انظر الوثيقة في الملحق رقم : 1 .

ودليل على استمرار التوتر بين البلدين الا انه يبدو ان العلاقات قد تحسنت بين البلدين لفترة محدودة وذلك ما نستنتجه من الرسالة(1) التي بعث بها باي قسنطينة محمد باي منمالي ولكن سرعان ما نشب النزاع بين الايالتين بسبب نزاع نشب بين رعايا جزائريين وتونسيين على الحدود الفاصلة بين البلدين(2).

وفي رسالة(3) من مصطفى بن محمود الى اخيه حسين باي تونس بشأن هذه الرسالة التي بعثها احمد باي ، فاننا نجده يفند ما جاء فيها .

ومهما يكن فان الفائدة التاريخية لهذه الرسائل مهمة ، اذ من خلالها يستطيع الدارس ان يتبين موطن الخلاف بين الأيالتين .

اضف الى ذلك انها تبين لنا استمرار الصراع والحذر الشديد بين النظامين ولعل ذلك من بين الاسباب التي كانت وراء الموقف السلبي للباي التونسي تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر .

ولا ادعي باني قلت الكلمة الاخيرة في هذا الموضوع ، وانما ما بذلته من جهد فيه لا يعد وان يكون مساهمة متواضعة ، وآمل ان تتكاثف الدراسات في المستقبل حوله .

أما ما يتعلق بالصعوبات التي واجهتني فأقتصر على ذكر اهمها ندرة الدراسات في هذا الموضوع ، وتناقض المصادر التي أشارت في فقرات منها لهذا الموضوع اضافة الى بعض الاسفار التي قمت بها الى كل من تونس وفرنسا حيث حصلت على مجموعة من الوثائق الهامة التي تخدم الموضوع الذى تطرقت اليه .

---

(1) مؤرخة في جمادى الاولى عام 1240 هـ/1824 م . انظر الوثيقة في الملحق رقم : 2

(2) انظر رسالة احمد باي قسنطينة الى حسين باي تونس ، المؤرخة في 24 رمضان 1242 هـ/ 1826 م . الوثيقة رقم : 6 . انظر الملحق رقم : 3 .

(3) مؤرخة في 19 رجب 1243 هـ / 1827 م .

انظر الوثيقة في الملحق رقم : 4 .

=.= كلمـــة شكـــــــر =.=

أتوجـه بخالص شكـري واعتزازي الى استاذي الفاضل الدكتور توفيق برو استاذ التاريخ الحديث بجامعة قسنطينة ، على رعايته لهذا الموضوع ، والذي منحنا الكثير من علمه ووقته ، والذي أفادنا أيما افادة ، وتتبع خطوات هذا الموضوع ، والذي لولاه لما خرج هذا [illegible] على شكله الحالي ، فجزاه الله خير الجزاء .

كما لا يفوتني ان اشكر جميع من قدموا لي مساعدات وكل من ساهم من قريب أو بعد في اثراء هذا الموضوع.

= الفصـــــــــل الأول =

==============

Scanned by CamScanner

الفصل الاول

الاوضاع العامة في الجزائر خلال مطلع القرن التاسع عشر

أولا : الاوضاع السياسية :

كانت الادارة السياسية الجزائرية — في تلك الفترة — في يد العثمانيين (1)
اذ اعتبرت الجزائر في غضون العقد الثالث من القرن السادس عشر ايالة
تابعة للامبراطورية العثمانية .
وقد مرت الجزائر — خلال الحكم العثماني — بأربعة عهود من الحكم السياسي :
عهد الباي لربيات (بمابي البايات) 1519 — 1587 ، ثم عهد الباشوات
1587 — 1659 كسلطة تنفيذية . بينما استمر تعيينهم كممثلين للباب العالي
وتشريفا له الى غاية سنة 1711 عدما تقلد حاكم الجزائر منصبي الداى*
والباشا ، فعهد الاغوات العسكرى 1659 — 1671 ، واخيرا عهد الدايات
1671 — 1830 .

---

(1) اختلف المؤرخون في تحديد تاريخ انتماء الجزائر للخلافة العثمانية ، وتبعيتها لها ،
فبينما يحددها احمد توفيق المدني بفترة ما قبل وفاة عروج (1518) . (حرب
الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا (1492 — 1792) الشركة الوطنية للنشر والتوزيع
بدون تاريخ ، ص . 205 .)
يذكر محمد بن يوسف الزياني في كتابه دليل الحيران وانيس السهران في اخبار
مدينة وهران ، بان ذلك وقع في 1519 . ص . 183 . ويحدد R. MANTRAN
سنة 1529/1530 كبداية لعلاقات الجزائر بالخلافة العثمانية ، في :
Le statut de l'Algerie, de la tunisie et de la tripolitaine dans l'empire ottomane . ESTRATTO DAL VOLUME:ARRIDELI CONGRESSO. INT. Distudi Nord Africaini(CAGLIARI 22-25 GENNAIO) 1965 P:4
بينما يورد ارجمولد كوران ان خير الدين (اعلن ان الجزائر مقاطعة للسلطان سنة 1520)
(السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر (1827 — 1847) ترجمة التميمي
ط ، 2 ، تونس 1974 ، ص 11 .
* داى تعني في اللغة التركية الخال جمع اخوال ، ويطلق اللفظ ايضا كلقب تحبب
يخاطب به الكهول ، والشيوخ خاصة بين افراد عسكر الانكسارية ومن هذا المعنى

ويعتبر عهد الدايات اطول عهد من هذه العهود الاربعة ، وهي الفترة التي بلغت فيها ايالة الجزائر صورتها النهائية ، واصبح يحكمها الداي بواسطة ديوان خاص* . هو عبارة عن مجلس للشورى وكان اهم اعضائه خمسة موظفين من بينهم[1] المسؤول عن الخزينة والناظر لشئون المالية**، المكلف بالشؤون البحرية ويعتبر كوزير للبحرية ، كتابة الديوان وتتكون من اربعة كتاب ، ومفتيين احدهما مالكي والآخر حنفي للنظر في الشؤون الشرعية***.

وقد لعب هذا المجلس دورا كبيرا في مساعدة الداي على تسيير شؤون الدولة ، الا ان التطاحن والتنافس اللذين ابتلى بهما الحكام العثمانيون في أواخر حكمهم بالجزائر قد اديا الى تعطيل هذا المجلس[2]

مهام كل من الداي والباي : كانت مهمة الداي واختصاصاته ـ بصفته رئيسا للدولة أولا ، وقائدا للانكشارية ثانيا ـ**** تتمثل في :ـ

الاشراف على شؤون الادارة العامة ، واعلان الحروب ، والتوقيع على معاهدات السلام ، وتجديد أو رفض حقوق الاستغلال للشركات الاجنبية ، ويشرف على اجتماع الديوان ، ويتلقى واردات الضرائب والاتاوات المختلفة من الدول الاوربية ، ومن باياته ، ويعين الرسميين بمختلف المناصب بما فيها الحكومة المركزية والبايات[3].

---

* . الديوان : مجلس يتالف من الضباط ويراسه الداى يجتمع اربع مرات في الاسبوع لدراسة مشاكل البلاد ، وهناك ديوان عام .

DIVAN - ELAAM , Le conseil général . Venture de paradis, P: II8.

(1) ارجمولد كوران ، المرجع السابق ، ص. 15 ـ 16 .

ROZET et Carette, Algerie 2eme edition, bons, Tunis ، بدون تاريخ ، P : 242

** . كان يسمى بـ" الخزناجي " ويشغل منصب مدير المالية والضرائب ، كانت له سلطة قوية في العهد العثماني ، ويقول Venture de paradis في كتابه Alger au xviiieme siecle. 2eme edition. Bouslama. Tunis. بأنه كان يقوم بمهام الوزير الاول ص : 105 ، والاوضح انه كان يقوم مقام وزير المالية .

*** . لان الجزائريين يسيرون في عباداتهم على المذهب المالكي ، بينما الاتراك العثمانيون احناف . (2) يرى حمدان بن عثمان خوجة ، ان تعطيل هذا المجلس من بين الاسباب الرئيسية التي ادت الى تدهور الحكم العثماني بالجزائر ، نظرا لما كان يقدمه ـ قبل الغائه ـ من نصائح وارشادات للداى ، (حمدان خوجه ، المرآة ، تحقيق وتعريب محمد العربي الزبيرى ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1975 ، ص. 154 .)

**** . عندما تقلد حكام الجزائر منصبي الداي والباشا معا سنة 1711 حيث وضع حد لتعيين الباشوات . (3) وليم سبنسر ، الجزائر في عهد رياس البحر ، ترجمة عبد القادر زبادية ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ص. 77 .

وقد قسمت الجزائر منذ عهد حسن باشا بن خير الدين الى ثلاث مقاطعات اداريـة تعرف كل واحدة منها باسم ((البايلك *)) على رأس كل بايلك ((بـاى **)) ، اضافـة الى دار السلطان التابعة للداى مباشرة ، وهؤلاء البايات مرغمـون على دفـع الضرائب والاتاوات *** المقـررة عليهم الى الجهـاز المـركـزى + ، وماعـدا ذلك فانهم يحتبـرون مستقلـين في ادارة بايلكاتهـم [1] . وقـد قسم البايلـك بدوره الى قيادات ودواويـر ، وقبائــل .

أمـا مهمـة الباى فتنحصـر في السهر على استتبـاب الامن في بايلكـه ، والعمـل على تحقيـق أمن الطـرق حتى يستطيـع الفرد ان ينتقـل من مكـان الى آخر دون حاجـة الى حمايـة [2] ، وكذلك ابقـاء المواطنـين في حالـة خضـوع ، ولذلك كثـيرا مـا كان يعمـد الى ترحيـل بعـض العائلات ، بل وتشتيـت قبائـل بأكملهـا في بعــض الحالات حتى يضمن الهـدوء ويتجنب الثـورات ، وللقيـام بهذه المهمـة كان الداى يرسـل له سنويا حاميـة من العساكـر لتسخـيرهـا في اخماد الفتن والثـورات [3] . اضـافة الى الحـاميـة الـدائمـة في البايلــك .

---

* . بايلك الغـرب وعاصمته وهران بعد ان استردت نهائيا من الاسبان (1792) ، بايلك الشرق وعاصمتـه قسنطينـة ، بايلـك التيطـرى وعاصمته المدينـة ، اما مدينـة الجزائـر وما جاورهـا فقـد كان يطلـق عليهااسـم دار السلطان .

** . بـاي : تعنـى في اللغـة التركية السيد وقديما الرئيس

*** . تتمثـل هـذه الضـرائـب والاتـاوات ـ خاصـة ـ في الـدنوس الـذى يقدمه البـاى للـداى كـل ثـلاث سنـوات .

+ . المقصـود بالجهاز المركـزى الداى وحاشيتـه .

(1) ارجمونـد كوران ، المرجع السابق ، ص . 15 .

(2) حمدان بن عثمان خوجة ، المصدر السابق ، ص . 161 .

(3) محمد العربي الزبيرى ، التجارة الخارجية للشرق الجزائرى ، الشركـة الوطنيــة للنشـر والتوزيـع ، الجزائـر ، 1972 . ص . 23 .

ولئن كان الدى هو المشرف على حكم الايالة من الناحية النظرية ، الا انه عمليا نجد ان الباي كان مستقلا اداريا بايلكه ، بحيث لم يكن يخضع للاول الا فيما يتعلق بجمع الضرائب ودفع الدنوس وتجنيد الجيوش عند الضرورة[1] ، ويبدو ان البايات قد استقلوا اكثر بولاياتهم في أواخر العهد العثماني* مستغلين في ذلك ضعف السلطة المركزية ، والحكم العسكرى غير المنظم ، والتنافس على كراسي الحكم ، رغم استمرارهم في دفع الاتاوات والضرائب (الدنوش) كالسابق[2] .

ورغم تمركز الجيش الانكشارى** في الجزائر (العاصمة) الا ان الاقاليم (البايلكات) كانت تدعم من حين لآخر بحاميات عسكرية من هؤلاء الجنود ولكن باعداد قليلة ، ولذلك فان أمن البلاد في الداخل كانت تؤمنه القبائل المعفاة من الضرائب ، والمتمتعة بالامتيازات اذ كانت وظيفة هاته القبائل المسماة بالمخزن*** هي فرض الطاعة على القبائل الاخرى الملزمة بدفع الضرائب ،

---

(1) نفس المرجع ، ص: 22 ، 23 .

* . تبتدئ هذه النزعة الاستقلالية للبايات ببايلكاتهم بعد موت الدى محمد بن عثمان باشا الذى تولى الحكم من سنة 1179 هـ الى سنة 1205 هـ الموافق لـ (1766 م 1791 م) ، ويرى الكثير من المؤرخين ان تدهور الحكم العثمانى بالجزائر بدأ بتاريخ وفاة هذا الداى .

(2) Feyssates. Recueil des notices et mimoires de la société Archéologique de la province de constantine, 3eme V de la 2eme Série.Alger .Paris.1869.P: 461.
سأشير الى هذا المصدر فيما بعد بروكاى .

** . الانكشارية هم من اوائل الجنود العثمانيين ، كانوا في الاصل يجلبون وهم صغار من النصارى وغيرهم ، يعتنقون الدين الاسلامي ، ثم يربون ويدربون تدريبا عسكريا خاصا ، وتكون منهم جيش قوي اطلق عليه باللغة التركية اسم يلى جرى ، أو تشرى) أى الجند الجديد ، ومنها لفظ الانكشارية .

*** . أيذات النفوذ والسلطة ، وقد اقطعت لهم السلطة الحاكمة اراضي زراعية تسمى بأرض المخزن ، وكانت تزود هم بما يلزم من الالات الفلاحية ، والاسلحة للدفاع عن انفسهم مقابل استجابتهم لنداء البايلك عند الحاجة اليهم ، لحفظ الامن ، وحراسة قابضي الضرائب . (نور الدين عبد القادر ، صفحات في تاريخ مدينة الجزائر من اقدم عصورها الى انتهاء العهد التركي . مطبعة البعث ، قسنطينة . 1965 . ص 147) .

وقد استفاد الاتراك من العداوة الموجودة بين القبائل المختلفة ولكي يستطيعوا ان يتابعوا حكمهم للجزائريين فقد انتهجوا سياسة التعامل بالحسنى مع المرابطين والعلماء ((باعتبارهم كانوا يمثلون الرأى العام ويؤثرون بالنصح والموعظة والنفوذ الروحي على العامة))(1) ومن الامور التي طبقها العثمانيون في ايالة الجزائر انهم كانوا لا يسندون — المناصب العليا — لابنائهم من امهات جزائريات ، واعتبروهم عبيدا بالرغم من انهم كانوا ((يشكلون القوة المدفعية للاوجاق))(2)

---

(1) أبو القاسم سعد الله ، اربع رسائل بين باشوات الجزائر وعلماء عنابة ، مجلة الثقافة ، وزارة الاعلام والثقافة ، الجزائر ، عدد 51 ، ماى جوان 1979 ، ص 15 .

(2) ارجمند كوران ، المرجع السابق ، ص 16 . والاوجاق كلمة تركية تعنى الموقد وتطلق على قطعات الجند الانكشارى الذى اعتبر مجموعة عبارة عن عائلة واحدة تجتمع حول موقد البيت ولذا صارت تفهم بمعنى المأوى ، وبمرور الزمن توسع معناها لتطلق في الاخير على الجيش والحكومة معا .

اسباب تدهور الوضع السياسي بالجزائر في نهاية الفترة العثمانية

يستطيع اي دارس للفترة الاخيرة من الحكم العثماني بالجزائر ان يلاحظ فساد الادارة واجهزة الحكم خاصة اثناء مطلع القرن التاسع عشر، وهو الوضع الذى ادى الى حدوث رد الفعل لدى الجزائريين، والمتمثل في الانتفاضات والتمردات والثورات التي قام بها هؤلاء* ضد الولاة والحكام العثمانيين.

بالاضافة الى ان النشاط البحرى اخذ يضعف تدريجيا، اذ نجد ان الجزائر التي كانت تملك 75 سفينة شراعية سنة 1623 لم يبق لها منها سنة 1798 الا عشرون سفينة (1).

ولعل ذلك يعود الى تلك المعاهدات التي ابرمتها الجزائر مع كثير من الدول الاوربية في هذه الفترة، ومرور السفن التجارية الاوربية تحت حماية، سفن حربية (2).

لكن يبدو ان اكبر ضربة قاضية تعرض لها الاسطول الجزائرى هي تلك التي جاءت من اوربا اثر حملة اكسموث** " 26 — 30 اوت 1816 " التي قامت ونتـــــ

---

* مما تجدر الملاحظة اليه ان هذه الفترة 1800 — 1830 كانت مليئة بالثورات ضد الوجود العثماني بالجزائر، كثورة محمد بن عبد الله الشريف الملقب بابن الاحرش سنة 1803 في شرق البلاد وثورة عبد القادر بن الشريف الدرقاوى سنة 1805 في غربها، وثورة محمد بن احمد التيجاني بن سالم التيجاني سنة 1826 في جنوبها، بالاضافة الى تمرد القبائل في الشرق والغرب والجنوب.

(1) ارجموند كوران، الامبراطورية العثمانية والجزائر في التاريخ، محاضرة القيت في الملتقى الثاني عشر للفكر الاسلامي، باتنة سنة 1978، ص: 6.

(2) Charle.A.Julion , Histoire de l'afrique du nord de la conquete Arabe à I830, Payot, Paris, 1956, P: 289.

** لقد كلف مؤتمر فيينا 1815 باسم الدول الاوربية اللورد اكسموث ليضع حدا لاستعباد المسيحيين (وترصنة) ايالة الجزائر، وفي 27 اوت 1816 وصل الاسطول الانجليزى والهولندى الى الجزائر مؤلفين من 27 باخرة بين صغيرة وكبيرة تابعة للبحرية الانجليزية، و ستة بواخر تابعة للاسطول الهولندى، ودامت المعركة بين الاسطولين الانجليزى والهولندى من جهة والجزائر من جهة اخرى احدى عشرة ساعة و ثلاث وعشرين دقيقة دمر على اثر هما الاسطول الجزائرى.

عبد الجليل التميمي، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي 1816 — 1871، الدار التونسية للنشر، ط 1، 1972، ص: 233 — 240.

لمقررات مؤتمر فينا (1815) بوجوب القضاء على القرصنة* في البحر المتوسط وطالبت الداي عمر بانهاء عملية القرصنة ، والافراج عن الاسرى المسيحيين ، واضطر في الاخير الى التسليم بشروط الاميرال بعدما دمر الاسطول الجزائري[1].

بينما يرجع المؤرخ الجزائري حمدان بن عثمان خوجة سبب انحطاط وتدهور الوضع السياسي بالجزائر في تلك الفترة الى النظام المتبع في تجنيد الانكشارية بحيث اصبحت هذه الفئة تحوي بين صفوفها افراد الاخلاق لهم ، اذ فتح باب التجنيد لاى كان ((حتى لاناس كانوا قد ادبروا أو أديلوا))[2]. وهو الشيء الذى أدى بهذه الفرق المسلحة ان ترتكب اخطاء ومخالفات ضد البدو والقبائل ولم يقف الامر عند هذا الحد بل نجدهم يقومون باشعال الثورات وتبديل الحكام حسب اهوائهم واغراضهم ((وكان اول ضحاياهم ... الداى مصطفى باشا))[3]. وكان شأنهم في خلق الفوضى كشأن العساكر الانكشارية في الشطر الشرقي من السلطنة العثمانية .

والحقيقة اذا تتبعنا قمة الهرم السياسي ـ خلال هذه الفترة ـ فاننا نجد خمسة دايات** تداولوا الحكم بين سنوات (1220 هـ ـ 1232 هـ) الموافق لـ (1805 م ـ 1817 م) قتل منهم أربعة ومات واحد موتا طبيعيا مما يدل على الفوضى والتطاحن الذى ساد الجهاز الحاكم ، ومن هنا يمكن القول بأن هذا الجهاز كانت له اليد الطولى في زوال النظام نفسه .

---

* . القرصنة كلمة اطلقها الاوربيون على النشاط البحرى الذى كانت تقوم به السفن الجزائرية ، وهي مأخوذة من كلمة Corsaire أى السفينة لكنها اصبحت تطلق على راكبيها ، وتعنى عندهم اللصوصية وقطع الطرق ، اما الجزائريون فكانوا يعتبرون هذه العمليات التي يقومون بها ((حرب الجهاد البحرى)) .

(1) Ernest Mercier , Histoite de Constantine, Constantine.1903, P: 345 .

ارجموند كوران ، الامبراطورية العثمانية والجزائر في التاريخ ، المرجع السابق ، ص 6 .

(2) حمدان خوجة ، المصدر السابق ، ص 149 .

(3) نفس المصدر ، ص 150 .

** . هم : الداى احمد 1805 ، والداى علي الفسال 1809 ، الداى الحاج علي 1809 ، والداي الحاج محمد 1815 . (والداى عمر 1817) .

ويرى صاحب كتاب ((فريدة منسية)) ان تاريخ وفاة صالح باي* هي بداية تدهور الحكم العثماني بالجزائر حيث يقول ((لكن بعد عهد صالح باي اصبح المعيار الوحيد هو الرصرلية لدى الداي حتي يتمكن اي كان من تولية هذا المنصب**))(1).

وبالرغم من ان حمدان بن عثمان خوجة(2)، والحاج احمد الشريف الزهار يزكيان(3) الداي مصطفى (1798 — 1805) فان الأخطاء التي ارتكبها كثيرة، واخطرها منحه لليهودى بوجناح سلطة مطلقة يتصرف في الايالة كيفما شاء الامر الذى جعل المؤرخين الغربيين يلقبونه بملك الجزائر(4).

ولعل ذلك ما دفع بعض — المتأخرين — منهم امثال "كاط*** CAT.E." ومذكرات المارشال " ديبرمون**** " التي نشرها " p: Serval" سنة 1965 في كتاب سماه " المجهولون في التاريخ "(5) الى القول بأن بداية تدهور الحكم العثماني بالجزائر يبدأ سنة 1798 وهي السنة التي توفي فيها الداى حسن (1792 — الى 1798) وخلفه في الحكم ((حفيذه مصطفى الخزناجي))(6) الذى تولى الحكم من سنة 1798 الى سنة 1805 .

---

* . قتل سنة 1792 .

** . اي منصب الباي .

(1) صالح العنتري، فريدة منسية، تحقيق احمد سيسارى، رسالة جامعية لم تنشر جامعة قسنطينة 1980، ص 85 .

(2) المصدر السابق، ص 150 .

(3) الحاج احمد الشريف الزهار، مذكرات، تحقيق وتقديم احمد توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1974، ص 71 .

(4) حمدان خوجة، المصدر السابق، ص 150 . هامش 1 .

*** . له تأليف سماه ((التاريخ الصغير للجزائر والمغرب وتونس)) طبع في الجزائر سنة 1891 .

**** . قائد جيش الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة 1830 .

(5) المهدى البوعبدلي، مقدمته لكتاب دليل الحيران وانيس السهران في اخبار مدينة وهران . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، 1978 . ص 6 .

(6) الزهار، المصدر السابق، ص 71 .

وطني المسموم فقد صور الحكم العثماني (في عهده الاخير بالجزائر) محل اطباق بين المؤرخين الذين كتبوا حول هذه الفترة ، ولعل ذلك يرجع الى سببين :

أولهما : الصراع الذى قام على اشده في مستوى السلطة المركزية ، ومحاولة الانفراد بكرسي الحكم .

وثانيهما : ما كانت تلقاه الطبقات الشعبية من التنكيل والبطش من طرف الحكام واعوانهم ، وقد سجل لنا المؤرخون الجزائريون — الذين عايشوا هذه الوقائع عن قرب أو كتبوا عنها بعد فترة قصيرة من وقوعها — الكثير من الاحداث المؤلمة التي كانت تمارس ضد المواطنين وممتلكاتهم أمثال : محمد بن يوسف الزياني في كتابه " دليل الحيران وانيس السهران في اخبار مدينة وهران "(1) . ومسلم بن عبد القادر في كتابه " أنيس الغريب والمسافر "(2) ، والعنترى في كتابيه " الفريدة المنسية "(3) و " المجاعات "(4) . وحمدان خوجة في كتابه " المرآة " .

وبعد مقتل الداى مصطفى من طرف الجيش الانكشارى(5) تولى الحكم بعده الداي احمد (1805 — 1808) الذى ارتكب اخطاء وجرائم كبيرة اثناء حكمه(6) . وأخطر من ذلك كله عبثه منها اغتيال وعزل البايات بهدف الاستيلاء على اموالهم* . وحتى يتجلب سخط الانكشارية ضاعف باموال خزينة الدولة وتبذيرها(7) . ورتباتهم ، وقدم لهم مساعدات مختلفة(8) . كما شاع في عهده بيع

---

(1) محمد بن يوسف الزياني ، دليل الحيران وانيس السهران في اخبار مدينة وهران ، تقديم وتعليق المهدى البوعبدلي . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر 1978 ، ص 190 ، 217 ، 220 .

(2) مسلم بن عبد القادر ، انيس الغريب والمسافر ، تحقيق رابح بونار ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر . 1974 . ص 47 .

(3) المصدر السابق ، ص 86 .

(4) صالح العنترى ، مجاعات قسنطينة ، تحقيق رابح بونار ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ، 1974 .

(5) ROZET et CARETTE . OPCIT. P : 254

(6) حمدان خوجة ، المصدر السابق ، ص 150 .

* ان ظاهرة اغتيال البايات ومصادرة اموالهم تصد تعويض العجز المالي في الخزينة العامة قد استهلها الداي حسن 1792 عند توليه الحكم .

(7) الزهار ، المصدر السابق ، ص 95 . (8) نفس المصدر ، نفس الصفحة .

مناصب البايات و ((لم يأمن على الذى يريد أن يصبح بايا الا ان يتجه لاقارب احمد باشا ويمدهم بالاموال))[1] وفي عهده كثرت التمردات والثورات ضد الحكم العثماني بالجزائر . اما على المستوى الخارجي فقد وقعت الحرب بين الجزائر وتونس سنة 1807[2].

واذا تتبعنا سير مراحل الحكم فاننا نجد ان الداى احمد قد قتله الجيش في 7 نوفمبر 1808 رغم محاولته كسب ودهم ، وعينوا علي خوجة خلفا له ، ولكنه لم يدم في الحكم .. الا فترة قصيرة[3]. ثم تولى الحكم بعد الحاج علي باشا في 7 فبراير 1809 ، الذى كان يشغل منصب خوجة الخيل في عهد سلفه ، وفي فترة توليه الحكم اندلعت الحرب مرة أخرى بين الجزائر وتونس اخذة منحنى آخر اذ نجده يرمي بكامل ثقله من اجل رد الاعتبار الى الجزائر اثر هزيمة الجيش الجزائرى سنة 1807 ، ولكن يبدو ان الظروف الداخلية (سياسيا واقتصاديا) كانت في غير صالحه ، خاصة في المنطقة الشرقية من البلاد . اذ نجد حمدان خوجة يصف لنا حالة الاقليم بقوله : ((كانت مقاطعة قسنطينة في بؤس شديد ، وكانت الزراعة تكاد تكون منعدمة))[4]. كما وصف هذا الداي بأنه كان سفاحا اذ امر بقتل الكثير من الحرب واعيان البلاد دون أي سبب[5].

ومهما كانت الاخطاء التي ارتكبت في عهده ، فان فترته كانت بمثابة انبعاث قوى وانتعاش ملحوظ ، انزعجت منه ايالة تونس المجاورة ، ولم تستسغه الدولة العثمانية ، واستنكرته الدول الاوربية في مؤتمر فيينا[6].

اما على الصعيد الداخلي فقد عرف عهده الحزم والحسم معا وضبط شؤون الايالة الى ان ((انساقت له الحالة ووقع الربح لجميع الناس))[7].

---

(1) حمدان خوجة ، المصدر السابق ، ص 150 — 151 .

(2) ROZET ET CARATTE .OPCIT , P: 254.

(3) يحددها الزهار بأربعة شهور ، ص 103 ، انظر ايضا حمدان خوجة ، المصدر السابق ص 151 . بينما يحدد MERCIER مدة حكمه بثلاثة .... اشهر فقط ، opcit P:336

(4) المصدر السابق ، ص 171 . وقد اورد Morcior تفاصيل هامة حول الانتفاضات التي كانت بايلك الشرق مسرحا لها خلال نهاية القرن الثامن عشر ، ومطلع القرن التاسع عشر ، ص: 335—340 .

(5) نفس المصدر ، ص 151 .

(6) عبد الحميد زوزو : هدنة 1810 ومعاهدة 1813 بين الجزائر والبرتغال ، مجلة التاريخ المركز الوطني للدراسات التاريخية) النصف الثاني من سنة 1981 ، الجزائر ص 26 .

(7) الزهار ، المصدر السابق ، ص 105 .

ومهما كانت اعمال الداى ((الحاج علي)) سلبية او ايجابية فان مصيره كان الاغتيال كسابقه سنة 1815[1].

بعد اغتيال الحاج علي في حمامه تولى بعده الحكم الداى الحاج محمد الا انه سرعان ما عزل من منصبه اذ لم يدم في الحكم اكثر من اسبوعين*

ويرى احمد توفيق المدني ان سبب قتله يرجع الى قيامه ((بتصحيح دفاتر الجيش والغاء مرتبات الذين لا وجود لهم))[2]، وهو ما يبين لنا بوضوح سيطرة هؤلاء الجند على قمة الهرم السياسي في الدولة وتغييره حسب أهوائهم مما نتج عنه عدم استقرار الحكم وتدهوره .

وبعد وفاة الحاج محمد اعتلى كرسي الحكم بعده الداى عمر** سنة 1815 ((وكان رجلا نشيطا صاحب دراية في شؤون الادارة))[3].

وقبل توليه منصب الداي كان قد كلف من طرف سابقه بالقضاء على بعض الاضطرابات في النواحي الشرقية كبوسعادة ، وفليسة ، التي كانت تزعج السلطة المركزية باغاراتها على سهول متيجة[4].

وقد وصفه القنصل الفرنسي ((دوفال)) في رسالة وجهها الى وزير خارجيته بتاريخ 16 مارس 1815 بأنه يتمتع بفكر شخصية هادئة ، وطبع عنيف غير أنه عادل[5].

---

(1) نور الدين عبد القادر ، المرجع السابق ، ص 119 ، ويرى محمد العربي الزبيري انه مات في حرب وقعت بين الجزائر وتونس ، وهو رأي ضعيف ، المرآة لحمدان خوجة ، ص 151 هامش 4 بينما حمدان نفسه يؤكد انه قتل اثر مؤامرة دبرت ضده ص152 .

* . اختلف المؤرخون في مدة بقاء هذا الداي في الحكم ، فيقول شالير انه اغتيل بعد اربعة عشر يوما من توليه السلطة ، اما (قرامون) فيورد انه مات بعد خمسة عشر يوما ، الا ان النص التركي الذى اعتمده التميمي يقرر ان اغتياله كان بعد سبعة عشر يوما من الحكم ، عبد الجليل التميمي المرجع السابق ، ص 236 .

(2) الزهار ، المصدر السابق ، ص 115 .

** . ولد بجزيرة " مد لسن " (Mételin) المعروفة بلسبوس سابقا ، وكان يدعى اغا العرب وله الاشراف المطلق على المنطقة المعروفة بدار السلطان وذلك من 1809 الى 1814 . مولاي بلحميسي ، الثورة على الاتراك في الجزائر ، مجلة الثقافة ، وزارة الاعلام ، الجزائر عدد 48 . ديسمبر 1978 ، ص 39 ، هامش 11 .

(3) نور الدين عبد القادر ، المرجع السابق ، ص 119 .

(4) نفس المرجع ، نفس الصفحة .

(5) عبد الجليل التميمي ، المرجع السابق ، ص 237 .

وقد ربط عمر داي علاقته بالباب العالي ، وأبدى استعداده لتنفيذ أي امر يصدره السلطان بشأنه ، وقد طلب من السلطان تسهيل عملية تجنيد الانكشارية من أزمير أ... ووصل خلال سنتين 1290 انكشاريا[1] .

ولعل لجوء الداي عمر الى الباب العالي يرجع الى الاضطرابات الداخلية التي جابهها هو شخصيا في السابق ، وكثرة التحرشات الخارجية ضد الايالة ، وخاصة الدول الاوربية ، ويبدو ان فترة توليه الحكم كانت مليئة بالاحداث المؤلمة ، اذ يصف " الزهار " ذلك بقوله :((وكانت دولته وايامه كلها نكس ومصائب*))[2] .

وفي خضم هذا الوضع لم يغفل الداي عمر عن جيرانه في تونس مطالبا اياهم بتسديد المطالب التي ذمتهم تجاه الحكام في الجزائر . ووجه في هذا المجال انذارا الى باي تونس** يطالبه فيه بالاعتراف علنا بتبعيته للجزائر ، ودفع كل ما اتفق عليه سابقا بين الدارئين وكذلك تحطيم حصون الكاف***(3)

ويبدو ان باي تونس تجاهل هذا الانذار ولم يرد عليه كما سيأتي . وبالرغم من أنه تمكن من تهدئة الاوضاع واخماد انقلاب الانكشارية بفضل رزانته وحكمه ، والمال الذى وزعه عليهم فان الاغتيال كان جزاؤه في خاتمة المطاف[4] ، وخلفه في الحكم الداى علي خوجة بتاريخ 9 سبتمبر 1817 وبعد تعيينه بعث برسالة الى السلطان ليضفي على حركته الانقلابية الصبغة الشرعية متهما سلفه بشتى التهم****(5) .

---

(1) نفس المرجع ، ص 237 .

(2) المصدر السابق ، ص 127 .

* . من هذه المصائب ، الجراد ، الغلاء ، استشهاد الرايس حميدو ، حملة اكسموث 1816 .

** . محمود باي تولى سنة 1814 .

(3) الزهار ، نفس المصدر ، ص 128 .

***. الكاف . مدينة تونسية تقع على الحدود الجزائرية التونسية .

(4) وليم سبنسر ، المرجع السابق ، ص 163 .

(5) عبد الجليل التميمي ، المرجع السابق ، ص 259 .

**** . منها : اتباعه سياسة استبدادية ، عدم اهتمامه بالضعفاء ، وتبذيره لاموال المسلمين وقيامه ببعض الاعمال التي ادت الى افلاس الخزينة .

ولعل هذه التهم مبالغ فيها خاصة اذا علمنا بأن الداي عمر وجد خزينة الدولة على أسوء حال ، وتجاهلها لخطر الانكشارية وغدرهم لقتل الداي على الحكم من الجهلة الى الانصبة ((وزاد في تحصيلها))(1)، كما قام بمحاربة بعض المحرمات كالزنا والخمر ، وامر الناس بأداء فريضة الصلاة مع الجماعة(2).

لقد عامل الجيش الانكشارى معاملة قاسية ، كما حارب العناصر التركية وابعدهم من مراكز المسؤولية ، بالمقابل نجده يقرب العنصر الوطني ويعتمد عليه +، ولو قدر له ان يعيش طويلا لا تخذ تاريخ الجزائر وجهة اخرى على غرار ما حدث في تونس مثلا ابتداء من العهد الحسيني(3)، وبعد موت علي باشا اثر اصابته بالوباء تولى الحكم بعده حسين باشا* وقد حاول قدر الامكان ان يعيد الهدوء والاستقرار الى البلاد اذ عمل على اطفاء الفتن ، وقمع الثورات ، وتهدئة خواطر القبائل المتمردة وتخفيف الضرائب ، غير ان حركته هذه جاءت بعد فوات الاوان ، وتصدع نظام الحكم بشكل لا يفيد فيه علاج(4).

---

(1) الزهار ، المصدر السابق ، ص 136 .

(2) نفس المصدر ، نفس الصفحة .

(3) ناصر الدين سعيدوني ، النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية 1800 — 1830، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1979 ، ص 44 .

+ . MERCIER Opcit. P:347 ، يذكر انه قرب الكراغلة وجيشا لحراسته من زواوة عدد، 2000.

* . انتخب دايا للجزائر سنة 1818 الى سنة 1830 ، وتوفي في الاسكندرية سنة 1838، وكان ذا رأي وحزم ، وشجاعة ، ابن ابي الضياف ، الاتحاف ، ج 3 ، ص 213 .
وقد قال فيه الزهار ، بأنه ((كان رجلا عاملا متدينا)) ص 141 ، كما وصفه وليم سبلسر بقوله :((بأنه كان رجلا مسؤولا)) ص 183 .

(4) نور الدين عبد القادر ، المرجع السابق ، ص 120 ،
حمدان خوجة ، المصدر السابق ، ص 174 .

دور الجيش الانكشاري في تدهور نظام الحكم :-

كان الحكم العثماني في الجزائر ((قائما على العنف والغلبة وتأييد أو سخط الانكشارية))(1)، ومن هنا يمكن القول ان الوجود العثماني بالجزائر اتخذ طابعا عسكريا(2)، وبفعل التجاوزات والتعديات التي ارتكبتها الانكشارية في تغيير الحكام حسب اهوائهم واغراضهم ، تدهورت الانكشارية كنظام واصبحت عاملا سلبيا في الحياة السياسية والاقتصادية ومصدر قلق واضطراب ، الشيء الذى دفع الداي علي سنة 1317 الي التخلص من سيطرتهم وجبروتهم بطريقة سبق بها السلطان محمود الثاني* منهم، وبذلك انهى الانكشارية كجيش منظم ، واصبح لا وجود له ، واحل ذلك ما جعل الداي حسين يستمر في الحكم حتى الاحتلال الفرنسي .

ومن هنا يمكن القول ان الداي علي الوحيد الذى اتخذ من التاريخ الدموى الذى خضبت دماؤه قمة الهرم السياسي في اواخر العهد العثماني بالجزائر ، وتنبه الى موطن الداء ، وسبب المحن والمصائب ، ورأى ان الجيش الانكشارى وراء ذلك كله ، بالرغم مما بذل من اعمال قصد ترضيته وتقديم طلباته الا ان هذا الجيش لم يتخلص بعد مما شب عليه في التعامل مع الحكام ، وذلك عن طريق الاطاحة بهم وقتلهم أخيرا ولذلك استعمل معهم العنف والقتل تأديبا لهم وردءا لخطورتهم عليه(3).

العلاقة بين الحاكم والمحكوم :

كان يوجد في الجزائر عدد كبير من القبائل التي تتمتع باستقلالها(4). في الوقت الذى لا يحتفظ فيه الاتراك العثمانيون في المدن الا بحاميات عسكرية صغيرة ، اذ حاول الاتراك حكم البلاد عن طريق الوسطاء والاعوان — كما سبقت الاشارة الى ذلك — وهذا النظام الذى اطلق عليه اسم قبائل المخزن يتمتع

---

(1) ابو القاسم سعد الله ، اربع رسائل بين باشوات الجزائر وعلماء عنابة ، المرجع السابق، ص 14

(2) محمد العربي الزبيرى ، المرجع السابق ، ص 19 .

*. محمود الثاني 1808 — 1839 قام بالغاء نظام الانكشارية سنة 1826 . وليم سبنسر ، ص 147 .

(3) الزهار ، المصدر السابق ، ص 136 — 138 .

(4) ناصر الدين سعيدوني ، (مذكرة حول اقليم قسنطينة) الاصالة ، وزارة الشؤون الدينية، عدد 70/71 ، الجزائر ، 1979 ، ص 11 .

بكثير من المزايا ، كالاعفاء من الضرائب* ومنحهم اراضي وبذور لحرثها ، واسلحة لتمكينهم من القيام بدورهم للمحافظة على الامن بين القبائل (1) .

ان الصلة الحقيقية بين الحاكم والمحكوم تتمثل في الضرائب ، ومن هنا ساد التنافر والتناحر بين الاثنين ، اضف الى ذلك تعالي الاتراك على الطبقات الشعبية خوفا من الاندماج فيها ، واصبحت هناك هوة سحيقة بين السلطة العليا في البلاد المتمثلة في الاتراك والفئات الشعبية ولذا نجدهم لكي يخففوا من هذا الغلو لجأوا الى اسلوب الاعتماد في حكم هؤلاء على المرابطين والعلماء (2).

ولعل الرسالة التي وجهها الداي مصطفى (1798 — 1805) الى الشيخ عبد الكريم الفقون عقب حادثة موت عثمان باي على يد جيوش الثائر الشريف بن الاحرش سنة 1804** احسن دليل على ذلك حيث دعا فيها الشيخ ان يكون دائما الى جانب الحكام كما عهد ذلك منه ، اذ ورد في مضمون الرسالة ما نصه :((اما بعد فرانا (كذا) نستكثر خيرك من شأن وقوفك وصيانتك للبلاد ، ونصحك للعباد فان ذلك منك معروف ، وانت بكمال الاحسان موصوف اذ خبرك معنا سابق فبالاحرى ان يكون بالزيادة لاحق (3)))

وهذه الصلة بين الحاكم والمحكوم قد يستحسنها البعض من حيث انها تركت للشعب حريته ، وقد ينتقدها البعض الاخر بحيث انها تركت للشعب الحبل على الغارب ، ولم تهتم بأي مجهود لمساعدته على التطور والتقدم وهو موقف سلبي دون شك (4) .

---

*. الضرائب نوعان : مباشرة وتتعلق بانتاج الاراضي الفلاحية كالمحاصيل . وغير مباشرة ، وهي عائدات الجمارك والاحتكارات وحقوق المكس .

(1) ارجمولد كوران ، السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي ، المرجع السابق، ص 16 . .

(2) نفس المرجع ، ص 16 . ابو القاسم سعد الله ، اربع رسائل ، المرجع السابق ، ص 15 .

(3) الجلتري ، فريدة منسية ، المصدر السابق ، ص 76 .

** . أورد Mercier, op.cit تفاصيل هامة حول هذه الثورة ص 308 — 318 .

(4) محفوظ قداش ، الجزائر في العهد التركي ، الاصالة ، وزارة الشؤون الدينية ، الجزائر عدد 52 ، ديسمبر 1979 ، ص 10 .

ولم يقف الامر عند هذا الحد بل تعداه الى ان السلطات المحلية كانت تعمل دائما على خلق العداوات بين مختلف القبائل حتى لا تجد من يعارض سياستها أو يقف في وجهها ، اذا ما ارادت القيام بأي شيء، ولكي لا يتحد الاهالي فيشكلوا قوة ضاربة قد تقضي على الحكام الضعيف[1].

ثانيا : الاوضاع الاجتماعية :—

يبدو ان الروايات غير متفقة على احصاء معين لعدد السكان في الجزائر اواخر الفترة العثمانية ، من ذلك مثلا ان شالير الامريكي يقدرهم بـ ((أقل وليس أكثر من مليون نسمة))[2]، بينما نجد حمدان خوجة يورد احصائية يقدر فيها عدد السكان بعشرة ملايين نسمة[3] وعليه يصعب تحديد عدد السكان في هذه الفترة تحديدا دقيقا اللهم الا اذا اعتمدنا على الاحصائية الفرنسية التي أجريت عام 1863* والتي حددت السكان بمليونين ونصف ، أي بعد ثلاثين سنة من الحروب المدمرة ، والوباء ، والمجاعات المهلكة**. وبذلك يمكن تقدير عدد السكان خلال تلك الفترة بثلاثة ملايين الى ثلاثة ملايين ونصف نسمة[4] تعيش الغالبية الساحقة منهم في الريف ، بينما سكان المدن يمثلون النسبة البسيطة .

---

(1) محمد العربي الزبيري ، المرجع السابق ، ص 23 .
(2) مذكرات وليم شالير ، قنصل امريكا في الجزائر 1816 — 1824 ، تعريب وتعليق وتقديم اسماعيل العربي ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1982 ، ص 36 .
محمد العربي الزبيري ، مدخل الى تاريخ المغرب العربي الحديث ، مطبعة بن بولعيد ، الجزائر ، 1975 ، ص 127 .
(3) حمدان خوجة ، المصدر السابق ، ص 50 .
* . لا شك ان الهدف من القيام بهذه الاحصائية كان الاطلاع على مدى قوة أو ضعف الجزائر بشريا .
** . منها مجاعة 1838 ، تحدث العنتري عنها باسهاب ، مبينا اسبابها في كتابه مجاعات قسنطينة ، المصدر السابق ، ص 47 وما بعدها ، وقحط وجراد سنة 1847 ، ص 51 وما بعدها . وسنوات 1866 ، 1867 ، 1868 ، ص 54 وما بعدها .
(4) ناصر الدين سعيدوني ، النظام المالي ، المرجع السابق ، ص 41 .

اما التنظيم الاجتماعي لسكان المدن في العهد العثماني فقد اخذ شكلا هرميا تحتل قمته الطائفة التركية التي لم يتجاوز عددها عشرين ألف نسمة(1) والتي كانت منغلقة على نفسها، ومعزولة عن السكان، بل كانوا ينظرون الى السكان نظرة استعلاء واحتقار(2).

ولعلهم اتخذوا هذا الموقف المتمثل في — العزلة — رغبة منهم في ابقاء هيمنتهم على المناصب العليا في البلاد أولا، وخوفهم من الاندماج والذوبان في الاوساط المحلية ثانيا.

ونتيجة لهذه الوضعية الخاصة التي اتسمت بها الاقلية التركية الحاكمة من حيث الوضع الاجتماعي فان علاقاتها مع بقية السكان نجدها تتصف بالروح العدائية، والنفور والتطاحن، واستمر هذا الوضع الى غاية مطلع القرن التاسع عشر حيث بدأ التقارب بين الطائفة التركية والسكان مثل مشاركة الكراغلة وفرق زواوة في القضاء على عصيان الانكشارية في عهد علي خوجة 1817(3).

اما الفئة الثانية فهم الكراغلة* الذين حرموا من الطموح الى المناصب العليا في الدولة، بينما نجد العثمانيين قربوا ابناءهم من اسيرات مسيحيات مقابل حطهم من قيمة ابنائهم من امهات مسلمات، والسر في ذلك هو ((ابعاد العنصر الاهلي (الوطني) عن مقاليد السلطة))(4).

---

(1) ابو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر الى الرابع عشر الهجري (16 — 20 م)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ج 1، 1981، ص 147،
انظر ايضا : ارجموند كوران، الامبراطورية العثمانية والجزائر في التاريخ، المرجع السابق، ص 4.

(2) ابو القاسم سعد الله، نفس المرجع، ص 146.

(3) يذكر كوران عدد فرق زواوة بلغ 2000 جندي. MERCIER, OPCIT, P :347.

(4) ابو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص 149.

(*) ابناء الاتراك من امهات جزائريات.

وتأتي الفئة الثالثة وهي فئة الحضر (سكان المدن) وتضم العلماء ، والتجار ، واصحاب الحرف ، والصنائع ، والكتاب الاداريين ، وقد حرمت هذه الفئة بدورها من أي طموح سياسي ، لان الاتراك احتكروا هذا الجانب مع أمية وجهل غالبيتهم ، ورغم حرمان هذه الفئة من ان تلعب دورها في هذا المجال ((الا انها كانت تتمتع بنفوذ روحي ومادى))[1] ، ونتيجة لعدم وصولها الى مركز السلطة فانها كثيرا ماكانت تقوم بأعمال من شأنها ان تقضي على الحكم التركي ، واصبحت تتطلع الى الخلاص منهم[2] ثم تأتي فئة العمال المدنيين الذين اطلق عليهم اسم ((البراني*)) ، وقد كان هؤلاء يشتغلون في مهن متواضعة في مدينة الجزائر ، فاشتهر الاغواطيون بالتنظيف ، والبساكرة بالحمالة ، والقبائل بأعمال البناء ، والزنوج بخدمة المنازل[3] . اما الميزابيون فقد كانوا يتصدرون الخاصة للعمل ((في مخابزها وحماماتها ، ومراحيضها ، ومصابنها ، ومدابغها))[4] ، كما عمل بعضهم لدى القناصل الاجانب[5] .

ويضاف الى هؤلاء (أي البراني) جماعة الاسرى المسيحيين الذين استخدموا في الحانات أو السجون أو خدم في قصر الداي ، أو رعاية بعض البساتين[6] . هذا فيما يتعلق بسكان المدن ، اما سكان الارياف وهم الغالبية الساحقة من المجتمع الجزائري — فيمكن تقسيمهم حسب مرتفعهم

---

(1) نفس المرجع ! ! ، نفس الصفحة .

(2) نفس المرجع ، ص 149 .

* . البراني : كلمة عامية تستعمل في الجزائر ، وتطلق على الغرباء عن المدينة أو حتى القرية .

(3) Venture de Paradis .OPCIT. P: I4.

(4) ابو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ص 161 .

(5) نفس المرجع ، والصفحة ، وقد اورد الفرنسي Venture de Paradis معلومات حول دور هؤلاء ، المصدر السابق ، ص 3 ، 14 .

(6) سعيدوني ناصر الدين ، النظام المالي ، المراجع السابق ، ص 46 .

من الحكم العثماني كالتالي (1) :

أ — القسم المتعامل مع الحكام مقابل فوائد مادية ومعنوية كقبائل المخزن .

ب — القسم الخاضع مباشرة للحكام ، ويعرف بقبائل الرعية التي عانت كثيرا من الاستغلال والابتزاز ، مما ادى بها الى الثورة والعصيان في كثير من الحالات عليها تتخلص من هذه المضايقات .

جـ — القسم غير الخاضع للسلطات الحاكمة لكونه بعيدا او متحصنا في المناطق الجبلية .

ولعلي لا استطيع ان ابين الوضعية الاجتماعية للمجتمع الجزائري خلال هذه الفترة دون التعرض للمجاعات والاوبئة التي تعرضت لها البلاد وكلفتها خسائر كبيرة ماديا وبشريا .

المجاعات والاوبئة :

تعرضت البلاد الى عدد من المجاعات والاوبئة في الربع الاول من القرن التاسع عشر ، منها المجاعة التي تعرضت لها الجزائر عام 1800 ، وأجبرت الداي على شراء القمح من موانئ البحر الاسود ((وقد بيع ذلك القمح بثمانية وعشرين فرنكا للصاع الواحد ، وبالرغم من ذلك كان لابد من تنصيب الجنود عند باب كل مخزن)) (2) ، وهو امر يدل بوضوح على ان الطلب كان يفوق العرض بكثير نتيجة اشتداد حاجة الناس الى هذه المادة الاساسية .

كما تعرضت النواحي الشرقية من البلاد (بايلك الشرق) الى مجاعة اخرى عام 1304 — 1305 وقد حدد العنتري اسباب ذلك بحلول الجوائح* واستفحال القحط ، ثم تكاثر الفتن والاضطرابات التي وقفت حجر عثرة بين الفلاحين وفلاحة الارض ، ونتج عن ذلك قلة الحبوب وارتفاع الاسعار ارتفاعا فاحشا (3) . بينما يقول الزهار ((لم يجد الناس الغلاء .. لكثرة الدراهم)) (4) ،

---

(1) نفس المرجع السابق ، ص 49 .

(2) حمدان خوجة ، المصدر السابق ، ص 160 .

(3) العنتري ، المجاعات ، المصدر السابق ، ص 13 .

* . الجوائح :— أفة طبيعية تقضي على المحصول ، وتتمثل في هبوب الرياح الباردة على الزرع عندما تبدأ سنابله تقترب من النضج .

(4) الزهار ، المصدر السابق ، ص 31 .

كما تعرض محمد بن يوسف الزياني الى هذه المجاعات والاوبئة قائلا :
((وحدث في ايامه* الطاعون الذى ذهب قبلة فمات الجل من الناس والعلماء ... وظهر الجراد الكثير فأفسد الزرع والثمار فسادا عظيما[1]))
ولعلنا نستطيع ان نستشف من ذلك الاثار السيئة التي تعرض لها المجتمع الجزائري خاصة اذا علمنا ان وسائل التصدى لهذه الامراض والمجاعات كانت غير متوفرة .

كما تعرضت ايالة الجزائر عام 1816 لاخطر وباء وهو الطاعون الذى اختلف المؤرخون في مدة بقائه ، فهناك من يورد انه دام أربع سنوات ، وهناك من يجعلها ستا[2].

لا شك ان هذه الاوبئة والمجاعات قد الحقت بالسكان اضرارا بالغة حتى جعلت الناس يسأمون الحياة في نواحي عنابة ، اما في قسنطينة فقد كان يموت يوميا حوالي ثلاثين شخصا ، كما انه جعل سكان جيجل وبجاية يهربون الى قمم الجبال خوفا من الامراض والاوبئة[3] .
وكذلك سكان منطقة جرجرة التي انتقلت اليها جرثومته عن طريق جماعة من المواطنين ، واستمر هذا الوباء الى غاية 1822[4].
ونتيجة للسياسة المتبعة من طرف الحكام القائمة على تكريس التفاوت الطبقي ، والولاء للسلطة الحاكمة أدى الى نقمة الطبقة المحرومة المنهكة بالضرائب ، والاتاوات المختلفة ، وجعلها تسأم هذا الوضع ، وتتحين الفرص للقيام بمحاولة التخلص منه وتغييره الى واقع افضل .

ثالثا : الاوضاع الاقتصادية :-

لا شك ان للوضع السياسي والاجتماعي دورا كبيرا في ازدهار الوضع الاقتصادي او تدهوره ، كما ان للجانب الاقتصادى دورا مهما في استقرار الوضعين السياسي والاجتماعي .

(*) الضمير يعود على الباي عثمان بن محمد بن عثمان بن ابراهيم الذى قتل على يد الثائر ابن الاحرش في موقعة وادى ازهور .
(1) المصدر السابق ، ص 207 .
(2) محمد العربي الزبيرى ، التجارة الخارجية ، المرجع السابق ، ص 52 ، بينما يحدد ناصر الدين سعيدوني ، تاريخ هذا الوباء بعام 1817 وذلك اثر قدوم سفينة عثمانية حاملة للحجاج من الاسكندرية ، النظام المالي ، ص 55 .
(3) محمد العربي الزبيرى ، نفس المرجع ، ص 54 .
(4) ناصر الدين سعيدوني ، المرجع السابق ، ص 55 .

في الجزائر ، وقد انعكس تدهور الوضع السياسي والاجتماعي في الجزائر ، ولكي نبين أواخر الفترة العثمانية ، على الجانب الاقتصادي للبلاد ، ولكي نبين وضعية الحالة الاقتصادية يستحسن أن نتعرض للمحاور الاساسية التي ارتكز عليها هذا الجانب خلال تلك الفترة من زراعة وتجارة وصناعة .

أ — الزراعة :— امتازت الجزائر بأراضيها الخصبة ومناخها الطبيعي الذى يساعد كثيرا على ازدهار الزراعة ، الشيء الذى ساعدها على انتاج كميات معتبرة من القمح والشعير ، اذ يذكر كل من شالير وكاريت وروزى ان سهول متيجة تعتبر من اجمل الاراضي وأوسعها في العالم وذلك نظرا لمناخها ، وخصوبتها ، وموقعها [1] .

ويمكن القول ان اقتصاد الجزائر كان مرتكزا على الزراعة والعناية بالبساتين والاشجار ، وتربية المواشي ، خاصة اذا علمنا ان مجموع سكان الريف والمقدر عددهم بأكثر من 90 % يشتغلون بالفلاحة [2] ، واهم منتوجات البلاد في هذا المجال القمح الصلب الذى كان يتهافت عليه الاجانب كثيرا نظرا لجودته وكثرة دقيقه [3] . مما جعل الحكومة ((لا تسمح بخروجه الا برخصة)) [4] ، وقد اختصت كل منطقة بانتاج معين من المحاصيل الزراعية حسب ظروفها الطبيعية والمناخية ، فالحبوب اشتهرت بها نواحي غريس ووهران ، ومجانة ، وقسنطينة ، وهي من المحاصيل الاساسية من حيث الاستهلاك المحلي أو التصدير للخارج .

---

(1) ROZET et CARETTE, OPCIT, P:40

(2) مبارك الميلي ، تاريخ الجزائر في القديم والحديث ، مكتبة النهضة ، الجزائر ، بدون تاريخ ، ج 3 ، ص 316 .

(3) VENTURE DE PARADIS, opcit, P:22

(4) نور الدين عبد القادر ، المرجع السابق ، ص 271 .

اما السكان الذين يقطنون بالمناطق الجبلية فقد كانوا يقومون بغرس الاشجار كالتين والزيتون ، وتربية الاغنام والبقر ، اما البدو والرحل فقد كانوا يقومون بتربية الابل والغنم(1).

ومن سلبيات الحكام العثمانيين في الجزائر في هذا المجال — باستثناء عهد الداي محمد بن عثمان ، وصالح باي ، ومحمد الكبير — انهم لم يساعدوا المشتغلين بالزراعة ، كما لم يقوموا باصلاح الاراضي او تقديم الاعانات لاستصلاحها وفلاحتها ، وانما على العكس من ذلك نجدهم يستغلون الاموال والجبايات في شؤون حكمهم المركزي بالعاصمة ، ورغم ذلك فان منتوجات الايالة كانت تزيد عن حاجة السكان بالاضافة الى انها كانت تحظى بشهرة عالمية في ذلك الحين(2).

لقد اورد نور الدين عبد القادر(3) احصائية تقدر فيها الانتاج الزراعي من الحبوب بنحو خمسة وعشرين مليون قنطار ، وعدد رؤوس الاغنام بنحو ثمانية ملايين والبقر بنحو مليون رأس ، واذا قارنا هذه الاعداد بما قاله العنترى من ان ((البقرة الغاية* (كذا) في ذلك الزمان** تباع بأربعة ريالات وخمسة ... وقيمة الزرع ما بين ريال وريال ونصف للصاع الواحد))(4).

اتضح لنا ان الفرق بين السعرين دليل قاطع على ان عدد الابقار كان كثيرا وبالرغم من تنوع المحاصيل الزراعية فان الفلاحة الجزائرية — في اواخر الفترة العثمانية كانت تعاني من مشاكل وصعوبات اخرت تطورها وذلك باعتمادها على الآلات البدائية كالمحراث الخشبي والمنجل البدائي ، ، اضف الى ذلك الحروب والكوارث الطبيعية المتعددة ، التي تشل السواعد ان لم تقض عليها ، وعدم احتكاك الجزائريين بالاوربيين للاستفادة منهم في تطوير هذا المجال(5). كما ان الظروف القاسية التي كان يعيشها الفلاح الجزائري الذى كان

---

(1) نفس المرجع ، ص 271 .

(2) محمد العربي الزبيرى ، المدخل ، المرجع السابق ، ص 125 .

(3) [illegible] المرجع السابق ، ص 272 .

* . البقر من النوع الجيد . ** . أي قبل حدوث مجاعة 1804 .

(4) المجاعات ، المصدر السابق ، ص 34 ، 35 .

(5) محمد العربي الزبيرى ، المدخل ، المرجع السابق ، ص 127 .

- معرضا بين الحين والآخر الحملات العسكرية ، ومهددا من قبائل المخزن المسلحة ، وتعرضه للمجاعات والاوبئة التي كانت تجتاح البلاد بين الفترة والاخرى - كان لها دور كبير في عرقلة هذا القطاع الحيوي . هذه المشاكل والصعوبات دفعت بكثير من الفلاحين الى تفضيل تربية المواشي على الارتباط بالارض لفلاحتها . او الالتجاء الى الزراعة المؤقتة والرعي المتنقل لاسيما في المناطق التي انعدم فيها الامن[1].

ولو ان الحكام عرفوا كيف يفيدون الفلاح الجزائري ، ولم يضايقوه بتجاوزاتهم المختلفة لتقدم انتاجها اكثر ، خاصة وان الارض الجزائرية اشتهرت بخصوبتها ، وهذا ما يؤكده قول ((Vouture de paradis)) عند زيارته للجزائر 1790 ان ((الاراضي كثيرة الخصب لكن اكثر من نصفها غير مستثمر))[2] ورغم بدائية وسائل الانتاج ، وموقف الحكام السلبي الا ان الزراعة كانت مزدهرة نسبيا قبل الاحتلال الفرنسي للجزائر . ولعله كان من الممكن ان تكون الزراعة اهم بكثير مما كانت عليه لولا تلك السياسة الجبائية الظالمة المتعسفة .

ب - التجارة :- هناك نوعان من التجارة داخلية وخارجية :

(1) - التجارة الداخلية : كانت تتم عن طريق التعامل بين القبائل المختلفة وذلك بواسطة الاسواق المحلية او الجهوية ، وكان هذه الاسواق تنعقد اسبوعيا* أو سنويا** ، يقصدها المنتجون والمستهلكون من جميع المناطق المجاورة[3].

---

(1) ناصر الدين سعيدوني ، النظام المالي ، المرجع السابق ، ص 34 .

(2) VENTURE DE PARADIS, OPCIT, p : 18

* . مثل سوق الثلاثاء ، سوق الحراكتة ، سوق اولاد عبد النور ، سوق خميس مليانة ، سوق ثنية الاحد وغيرها .

** . مثل المعرض السنوي الذي كان يقام بوادي الدثمانية ، ولا زالت بعض هذه الاسواق السنوية الى يومنا هذا ، مثل سوق الخريف (اي اليوم الاول والثاني والثالث من دخول فصل الخريف) الذي يعقد سنويا بتكوت ، ولاية الاوراس ، ويتم فيه بيع جميع الغلل السنوية المنتجة بالمنطقة .

(3) نور الدين عبدالقادر ، المرجع السابق ، ص 172 .

وقد شجع التبادل التجاري الداخلي عاملان اثنان هما :—

أولا :— تشجيع الحكام لمثل هذه الاسواق التجارية حتى يتسنى لهم فرض سلطتهم على سكان الارياف الذين يقصدونها لقضاء حاجاتهم، وتحصيل الضرائب ومراقبة السلع، والقبض على المتمردين والمداينين، وحتى يتمكنوا من منع القبائل المتمردة من دخول هذه الاسواق لخنقها اقتصاديا .

ثانيا :— مرور القوافل التجارية عبر الاراضي الجزائرية نحو المشرق العربي أو بلاد السودان(1) .

(2) — التجارة الخارجية : اول ما يلفت الانتباه في هذا المجال هو عدم وجود شركات تجارية بالجزائر حينئذ ، مثل الشركات التجارية الموجودة بتونس، وطرابلس الغرب، تتولى مهام التجارة الخارجية للبلاد وتقوم بتأمين الحاجيات الضرورية لها(2) .

صحيح لقد وجدت شركتا بكرى وبوشناق اليهوديين ، وبعد اندماجهما تسببت في الخلاف التاريخي بين الجزائر وفرنسا ، وبذلك كانت بمثابة نقمة على الجزائر ، اذ انها لم تكن تعمل لصالح الشعب ولا تقوم بسد احتياجاته لاصطباغها بصبغة شبه رسمية ، ذلك لان بعض الدايات كانوا يؤيدونها ، وثانيا لكون مهماتها التجارية كانت تنحصر في اشياء خاصة، ومع دول معينة ، مما تسبب في بقاء الفراغ التجاري ، وفرضت الحاجة الملحة وجود تجار آخرين من الشعب لسد حاجياته المختلفة في هذا المجال(3) . ومن هنا فان التجارة كانت تتم مع تونس والمغرب الاقصى وبقية الاقطار العثمانية الاخرى بالمشرق عن طريق التجار الخواص — ان صح التعبير —

---

(1) ناصر الدين سعيدوني ، النظام المالي ، المرجع السابق ، ص 38 .

(2) نكرى طربا ، ترجمة الوثيقة العثمانية ، مجلة التاريخ ، المركز الوطني للدراسات التاريخية ، رقم 7 ، 1980 ، ص 79 ، 83 .

(3) نفس المرجع ، ص 36 ، 37 .

وكانت ((تعتمد على الحاجات الكمالية والترفيهيـــة))(1) .

ولذلك يمكن ان نتساءل عن اسباب عدم وجود هذه الشركات في الجزائر هل يرجع ذلك الى طبيعة النظام العثماني وموقفه السلبي تجاه هذا القطاع الحيوي من اقتصاد البلاد ؟ أم يعود ذلك الى اسباب أخرى . لعل العائق الاساسي لتطور وتوسع التجارة في الجزائر هو الاحتكار المفروض من طرف الحكام(2) بين الحين والآخر يهدف جميع المداخيل المضمونة ، فقد كان الملح محتكرا على المستوى الوطني ولا يمكن تصديره ، وحتى المواد التي يسمح بتصديرها من طرف الخواص فانها لا تصدر الا في نطاق أقاليم الدولة العثمانية(3) . كما احتكر بعض البايات تجارة التصدير فـي بايلكاتهم(4) .

ولعل عدم مشاركة الجزائريين في ادارة التجارة الخارجية والاشتغال فيها يعود ايضا الى كون هذه التجارة محتكرة من طرف اليهود بحكم مكانتهم لدى الداي ، ولنفوذهم القوي ، اذ نجدهم يضغطون عليه حتى لا يسمح باقامة علاقات تجارية جزائرية اجنبية الا بواسطتهم(5) .

وبالرغم من تنوع التجارة الخارجية فان الارباح الضخمة التي كانت تدرها تذهب في معظمها الى التجار اليهود والى كبار الموظفين والضباط العثمانيين الذين لم يكن يهمهم تطوير وسائل الانتاج وتجديدها بقدر ما كان يهمهم تكديس الثروات ، وقد سجل القنصل الامريكي شالير المكانة التي احتلتها الطائفة اليهودية في احتكار التجارة الخارجية ((والسمسرة واعمال المصارف وتبديل العملـــة(7) .))

---

(1) ناصر الدين سعيدوني ، المرجع السابق ، ص 33 .
(2) شالير ، مذكرات ، المصدر السابق ، ص 50 ، 192 .
(3) وليم سبنسر ، المرجع السابق ، ص 122 .
(4) نفس المرجع ، والصفحة .
(5) مبارك الميلي ، المرجع السابق ، ص 310 .
(6) نفس المرجع ، ص 310 .
(7) وليام شالر ، المصدر السابق ، ص 69 .

ان عدم وجود شركات تجارية وطنية حالت دون تكوين بورجوازية جزائرية ، ومكنت الحكام من مراقبة الحركة المالية والسيطرة عليها لفائدتهم ، وفائدة حاشيتهم ، ذلك ان الحكام العثمانيين بالجزائر سمحوا للاجانب بأن يحتلوا مكان طبقة بورجوازية بالرغم من ان تصرفاتهم كانت تصرفات استعمارية .

ولعل القصد من وتوف الحكام في وجه تكوين بورجوازية وطنية هو تخوفهم من هذه الطبقة نفسها ، اما البرجوازية الاجنبية فهمها الوحيد هو ابتزاز الاموال وتوظيفها خارج الوطن ، وبالتالي لا يشكل اي تناقض بينها وبين النظام .

ج ـ <u>الصناعة</u> : ... كانت الصناعة في الجزائر عبارة عن صناعات اولية أو تقليدية لا اكثر ، موجودة بمدن الايالة ، وكان اصحابها ينضمون في هيئات تتولى كل واحدة منها صناعة نوع محدد من الادوات والملابس التي يحتاج اليها السكان في حياتهم اليومية[1] ، ومهما كان مستوى الصناعة الجزائرية في هذه الفترة فاننا نجدها تعرضت لنفس الظروف القاسية التي تعرضت لها الزراعة ، لذلك لم يتسع لها مجال التطور ، بل استمرت ضمن المعادل وطرق بسيطة تعكس طبيعة الحياة الاجتماعية للمواطنين ، واقتصر مجالها في الصناعات اليدوية البسيطة ، كصناعة الحرير والصوف والجلود المدبوغة[2] كما وجدت مهن اخرى كصناعة الاسلحة والفضة بمناطق جرجرة ، اما الصناعات الثقيلة فانها تكاد لا تذكر اذا استثنينا بعض الصناعات الخشبية لبناء السفن ، وتحضير البارود ، وسبك المدافع بمدينتي قسنطينة والجزائر[3].

ولعل من بين الاسباب التي ادت الى عدم تطور هذا الجانب هو اشتغال الاهالي والحكام بالحروب والفتن خاصة في اواخر الفترة العثمانية ، وهو وضع لا يساعد على تنشيط النمو الاقتصادي والتطور الصناعي مهما كان نوعه ، كذلك عدم اهتمام الحكام وعدم تشجيعهم لهذه الصناعات ،

---

(1) محمد العربي الزبيري ، التجارة الخارجية ، المرجع السابق ، ص 61 .
(2) شالير ، مذكرات ، المصدر السابق ، ص 93 ، 94 .
(3) ناصر الدين سعيدوني ، المرجع السابق ، ص 35 .

زيادة على ذلك ضعف مستوى الحياة الاجتماعية الذي ظل بدائيا لا يتطلب من الاهالي اي جهد الا يفاء بحاجياتهم اليومية .

واذا كانت العوامل الداخلية قد عرقلت هذا الجانب الحيوي في البلاد فان للعوامل الخارجية دورا سلبيا في عدم تطور الصناعات اليدوية ، كالحروب التي وقعت بين الجزائر والدول الاوربية والتي حالت دون تصدير هذه المنتوجات الى الخارج[1] . وكذلك استقرار المهاجرين الاندلسيين من ذوي المهن الصناعية في كل من تونس والمغرب حال دون تسويق منتجات البلاد الى هذين البلدين، وبالتالي اقتصر وجود هذه الصناعات على مستوى الاسواق الداخلية ((التي حكمت عليها فداحة الضرائب بالنضوب))[2] مما ادى الى انحطاط مستوى هذه الاسواق الريفية ، ونتيجة للسياسة الاقتصادية والادارية التي سار عليها العثمانيون بالجزائر في اواخر حكمهم لها ، تدهورت بنية النظام داخليا ، ولذلك لم يصمد امام الهزة الخارجية التي تعرض لها اثر الغزو الفرنسي للجزائر سنة 1830 .

---

(1) مبارك الميلي ، المرجع السابق ، ص 309 .
(2) نفس المرجع ، ص 309 .

الفصل الثاني

الاوضاع العامة في تونس ابان مطلع القرن التاسع عشر

أولا : الاوضاع السياسية :-

بعد ان فتحت تونس نهائيا من طرف العثمانيين سنة 1574 مرت بثلاث مراحل من الحكم هي :-

أولا : مرحلة عهد الاغوات من 1574 الى 1591 ، وهي الفترة التي كانت خلالها تونس تابعة للجزائر[1]، ويبدو ان عهد الاغوات كسلطة تنفيذية استمر الى غاية 1593 تاريخ تولى الداي عثمان منصب الداي رسميا[2].

وابتداء من 1591* انفصلت باشوية تونس عن ايالة الجزائر، وعقب هذا الانفصال حدثت مشاكل بين الايالتين أولاها مشكلة الحدود[3].

كان الجهاز الاداري في تونس اثناء فترة الاغوات يحتوى على كل من : الآغا**، والداي***، والباي****، وقابودان رايس*****، واخيرا الديوان المتكون

---

(1) احمد بن ابي الضياف ، اتحاف اهل الزمان باخبار ملوك تونس وعهد الامان ، تحقيق لجنة من كتابة الدولة للثقافة والاخبار ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ج 2 ، النشرة الثانية ، 1977 ، ص 32 .

(2) نفس المصدر ، نفس الصفحة .

(3) محمد العربي الزبيري ، المدخل ، المرجع السابق ، ص 64 .

* . رغم ان انفصال تونس عن الجزائر جاء بعد قرار السلطان العثماني باستبدال نظام الباي لربيات بنظام الباشوات سنة 1587 .

** . الآغا : وهو الرئيس .

*** . الداي قائد كتيبة من الانكشارية وعددها 100 جندي .

**** . الباي مكلف بجباية الضرائب والاموال .

***** . قابودان رايس رئيس الأسطول الحربي .

من الهيئة السابقة ، ومهمته النظر في شؤون الجند والولاية[1].

ثانيا : مرحلة عهد الدايات : بدأت فترة الدايات الذين تآمروا على الجهاز السابق ، وقاموا بعملية انقلاب لصالحهم ، واستمر عهدهم نصف قرن تداول الحكم اثناءه ثلاث دايات*[2].

ثالثا : عهد البايات وبداية الاسرة المرادية من سنة 1640 الى سنة 1705 ، وابتداء من هذه السنة بدأ عهد الاسرة الحسينية نسبة الى مؤسسها " حسين بن علي " الذى حكم تونس من 1705 الى 1740 ، واستمر حكم هذه الاسرة لتونس حتى سنة 1957 وبذلك تكون مدة حكمها مائتين واثنتين وخمسين سنة[3]، تداول فيها الحكم تسعة عشر بايا .

ومن اشهرهم حمودة بن علي باي ، ومحمود باي ، وحسين باي واحمد باي .

ولاية حمودة باشا (1782 — 1814)

لما طعن علي باشا في السن واصبح غير قادر على تحمل شؤون الحكم رشح ابنه ((حمودة)) واشركه في الحكم ابتداء من سنة 1777 ، ويرجع احمد بن ابي الضياف سبب هذه التولية المبكرة لحمودة الى ثلاث أسباب[4] :—

---

(1) حسن حسني عبد الوهاب ، خلاصة تاريخ تونس ، الدار التونسية للنشر تونس ، 1976 ، ص 160 .

(2) نفس المرجع ، ص 161 ، 163 ، 165 .

(3) رسالة الناعي الى احمد باي في الشكوى من ابن ابي الضياف وسائر اعدائه تحقيق احمد الطويلي ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، 1977 ، ص 16 .

(4) المصدر السابق ، ص 213 .

* . هم عثمان داى (1591 — 1610) ، يوسف داى (1610 — 1637) وفي عهده وقعت خلافات على الحدود بين الايالتين ، اسطا مراد داى (1637 — 1640) .

أولا : مرض علي باي وكبر سنه ، ثانيا نفاذ صبره من تسلط حكام الجزائر وضغوطهم عليه ، وثالثا تحاش الفتن والتطاحن على العرش بعد وفاته .

ويبدو ان علي باي كان يهدف الى تثبيت ابنه في الحكم حتى يتدرب على شؤونه في ظل حماية ابيه ، وحتى يقطع الطريق أمام ابناء اخيه محمد باي (توفي 1759 *) . وحسب قانون وراثة العرش في الاسرة الحسينية ** فان محمود بن محمد كان الاحق بالولاية من ابن عمه حمودة .

ويبدو ، ان حاشية علي باي كان لها ضلع كبير في هذه التولية الا اننا لا ندرى ان كان ذلك بمحض ارادتهم أو بايحاء من علي باي نفسه[1] .

فقد طلبوا منه ((ان يولي عهده لابنه الشاب المقتبل الخليق بالرئاسة))[2] . وبعد ان تمت البيعة لحمودة بولاية العهد بعث علي باشا الى الباب العالي يطلب الموافقة على تقديم ابنه للولاية بعده ، فكانت له الموافقة على ذلك وارسل الفرماني السلطاني والشعار الملكي لابنه ((وكان اول من بايعه بها ابن عمه ابو الثناء محمود))[3] . وبهذا الاجراء تولى حمودة باشا ولاية العهد

---

(1) احمد بن ابي الضياف ، ج 2 ، المصدر السابق ، ص 213 .
(2) نفس المصدر ، ص 213 .
(3) نفس المصدر ، ص 214 .
* . خلف محمد باي ولدين هما :- محمود ، واسماعيل .
**. حسب قانون وراثة العرش في الاسرة الحسينية ، فان الخلافة تسند الى الاكبر سنا ، لكننا نجد ان علي باي لم يحترم هذا القانون ، وقدم ابنه على ابن اخيه الذى كان الاحق بالخلافة ، وهو الامر الذى ادى فيما بعد اثناء تولى محمود العرش بعد عهد حمودة الى تصفية حسابات مع الجهاز الادارى الذى رافق حمودة طيلة مدة حكمه .

في 9 فبراير 1777[1]، واستمر في ممارسة مهامه تحت رعاية ابيه حتى سنة 1782 تاريخ وفاة والده ، وجددت بيعته ، وكان اول من بايعه أيضا ابن عمه محمود ثم تبعه العلماء وكبار القضاة واكابر الجند والاعيان[2].

استهل حمودة باشا اعماله الرسمية باجتماع مع وزرائه ، ورجال دولته قال لهم فيه :((اني لم اجلس في هذا الوضع بتغلب حربي أحسن لمن اعانني ، وانتشفى ممن حاربني ، وقد طلبتموني في حياة ابي ، فأطلب منكم ان تكونوا لي كما كنتم لابي ، والله تعالى ولي اعانة الجميع))[3].

تولى حمودة باشا الحكم بعد ان اكتسب خبرة بشؤون الادارة ، اذ مارسها خمس سنوات تحت اشراف ابيه ، كما كان يمتاز بالفطنة والاخلاص في تسيير امور بلاده[4].

ورغم تعرض تونس خلال حكمه الى عدة حملات عسكرية استطاع ان يقف في وجهها موقفا قويا وان يردها[5]. الشيء الذى اكسب تونس خلال هذه الفترة مظهرا دوليا ذا شأن ، واصبحت أقوى الولايات الافريقية العثمانية الثلاث*[6].

---

(1) نفس المصدر ، ص 214 .

(2) احمد بن ابي الضياف ، اتحاف .. اهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الامان مراجعة وتعليق احمد الطويلي ، الدار التونسية للنشر ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، النشرة الثانية ، ج 3 ، 1979 ، ص 15 .

(3) نفس المصدر ، نفس الصفحة .

(4) احسان حقي ، تونس العربية ، بيروت ، بدون تاريخ ، ص 110 .

(5) صلاح العقاد ، المغرب العربي (الجزائر ، تونس ، المغرب) مكتبة الانجلو المصرية ، ط 3 ، 1969 ، ص : 35 .

(6) احسان حقي ، المرجع السابق ، ص : 110 .

* : يلاحظ ان تونس كانت تمر " نسبيا " بعهد القوة السياسية ، بخلاف الجزائر التي كانت تمر بمرحلة الانحلال وتدهور لوضعها السياسي ، وكذلك ايالة طرابلس .

وقد ظلت الأسرة الحسينية محتفظة بطابعها التركي سواء في حياة القصر أو الاعتماد على الجيش الانكشاري (1)، كما استمر المذهب الحنفي + مذهبا رسميا لها .

لقد تعرض حكم هذا الباي الى هزات داخلية وأخرى خارجية عنيفة الا انه تمكن من التغلب عليها ، منها الحروب التي وقعت بين تونس والبندقية بسبب احراق هذه الاخيرة لبضاعة تونسية بدعوى الخزف من الوباء سنة 1789، اضطرت البندقية بعدها الى عقد الصلح ودفع الأتاوة لتونس (2) .

أما من حيث الهزات الداخلية فقد تعرض لعملية اعتيال من طرف مماليكه (غلمانه) سنة 1792، ويرجع ابن ابي الضياف سبب ذلك الى الطرق التربوية الصارمة التي انتجها حمودة باشا في تربيتهم اذ يقول : ((ولما اشتد الحال على بعضهم مع حداثة السن وجنون الشباب تواطأ ثلاثة منهم على قتله)) (3) .

1- عن علاقة تونس الدولة العثمانية أنظر :

R.MANTRAN, L'Evclution des relations entre la Tunisie et l'empire Othomane in les cahiers de Tunisie, 2ème et 3ème trimestres, 1959. P.319 - 333.

+ . لان المذهب السائد في شمال افريقيا هو المذهب المالكي .

2) الاتحاف ج 3، ص27 . حسن حسني عبد الوهاب، المرجع السابق، ص188 .

3) نفس المصدر، ص 28 .

وقد ظهرت تونس في عهد حمودة باشا كدولة قوية ، اذ تدخلت عسكريا في طرابلس وطردت منها الثائر علي برغل* سنة 1795.(1) اما على صعيد المنافسة على السلطة فقد استتب له الامر ، وذلك بقضائه على آخر منافس له على الحكم وهو حسن بن اسماعيل بن يونس باي سنة 1799** ، اذ استطاع ان يستقدمه من الجزائر عن طريق الحيلة ، باعانة وتواطئ من وكيل الجزائر بتونس الحاج محمد لبرادعي.(2)

الا ان اخطر هزة خارجية تعرض لها حكم هذا الباي هي التي جاءته من الجزائر ، فقد ضاق صدره بتحرشات حكامها ، مما جعله يجهز جيشا كبيرا لمحاربتهم ، ولكنه فشل في المرة الاولى سنة 1306 ، ولم يوقف زحف الجند الجزائرى غير يوسف صاحب الطابع***. كان حمودة باشا معروفا بحب التسلط ، ولذلك لم يتحمل صلف الانكشارية وغرورها ، والجأ الى تجنيد فرق من القبائل العربية ، وسكان المدن ، الشيء الذى اغضب الجيش الانكشارى وشجعهم على

---

(1) نفس المصدر ، ص 29 .

* . اصله من الترك ، ولقب بالجزائري لاقامته بالجزائر مشتغلا فيها بالجهاد البحرى ، وعرف "ببرغل" لانه لا يعطى لاعوان مراكبه الا أكلة البرغل : جريش خشن من الحنطة المسلوقة ((وهي كلمة تركية)) المنجد في اللغة والادب والعلوم ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ط 17 ، ص : 34 .

** . بمقتل هذا الامير ينتهي اخر مطالب بالعرش من الاسرة الباشية وينتهي الصراع بين العائلة الباشية والحسينية على الحكم . ووقع هذا الانقسام بين علي باشا وحسين بن علي (مؤسس الاسرة الحسينية). وقد أورد صاحب الاتحاف أيضا معلومات حول هذا الموضوع في الاتحاف ، الجزء الثاني ، ص : 140 وما بعدها . انظر ايضا : Mohamed ben youcef seghir, chronique tunisienne 2eme edi- bous- P:I48-I60

(2) الاتحاف ، ج 3 ، المصدر السابق ، ص : 47 .

*** . سأوضح هذه الاحداث بالتفصيل في الفصل الخاص بالعلاقات الجزائرية التونسية في المجال العسكرى .

القيام بمحاولة انقلاب لاسقاط الاسرة الحسينية سنة 1311[1] التي قطعت عليهم سبل الوصول إلى مراكز السلطة العليا ، وقد تصدى حمودة باشا بكل قسوة لهذه الثورة ، وذلك باعتماده على الجند العربي والكراغلة الذين اظهروا له الولاء ، وذلك انقذ الاسرة الحسينية من الزوال[2] ، واختنق هذا التمرد في مهده[3] .

ويرجع سبب هذه الثورة — حسب رأي ابن ابي الضياف — الى الطريقة التي اتبعها حمودة باشا في تنظيم الجيش وتدعيمه بعناصر وطنية فاعتبر الجنود الاتراك هذه العملية (تضعيفا للعصبية*)[4]

ويبدو ان هذه الثورة سبقها تخطيط واعلام على مستوى حل الحاميات التركية الموجودة بالقرب من تونس (العاصمة) كحامية حلق الوادي ، والحمامات ، والكاف ، ورغم ذلك فقد فشلت في مخططها قبل تنفيذه بسبب افشاء سرها[5] ، وقد سرح حمودة باشا الجيش الانكشاري ولكن ذلك لا يعني انقطاع الصلة بين تونس وبين الباب العالي لان هذا الاخير نفسه كان يعاني من شطط هذه الفئة .

---

(1) Eugene Plantet, Correspondance des BEYS de Tunes et des Consuls de france, avec la cour, 1577- 1830 , tome 3, Paris.1899. P: 493.
ويقول " بيلون" ان هناك ضابط انجليزي ، وضابطين وعشرة مدفعيين فرنسيين كلهم سجناء عادوا من مالطا ساعدوا هؤلاء المتمردين ، نفس المرجع ، نفس الصفحة .

(2) صلاح العقاد ، المرجع السابق ، ص: 35 .

(3) EUGENE PLANTET, OPCIT , p: 493
— دائرة المعارف الاسلامية ، المجلد السادس ، ص : 66 .

(4) الاتحاف ، ج 3 ، ص: 70 .

* . هذا الموقف من الاتراك (العزلة وعدم الاختلاط بالاهالي) في الجزائر وتونس كان ناتجا من خوفهم من الذوبان في المجتمع ، وحتى يبقوا فئة متميزة ، اتخذوا هذا الموقف .

(5) نفس المصدر ، ص : 71 .

ورغم الاضطرابات التي سبقت الاشارة اليها في عهد هذا الباي الا اننا نستطيع القول بأن تونس عرفت خلال مدة حكمه — رخاء واستقرارا لا عهد لها بهما من قبل.

ولعل ذلك يرجع الى سياسة حمودة باشا التقشفية وكرهه للاسراف في غير مصلحة ((حتى نسب الى شح))[1]، فقلده الناس وتأثروا به وساروا على طريقته واسلوبه فبلغ العمران ذروته وظهرت الثروة بين السكان[2].

ولعل من بين الاسباب التي أدت الى استقرار الوضع الداخلي — رغم بعض الازمات — يرجع الى :=

- سياسة التحالف والاشتراك بينه وبين الاهالي من الاعيان في المصلحة.
- الاعتدال النسبي في النظام الجبائي الداخلي، بحيث اصبح ذلك ممكنا بفضل ما تدره المصادر الخارجية كالجهاد البحري، والتجارة الخارجية.
- تقلص العداء التقليدي بين النظام الحاكم والسكان، الذي دعمه التصدي لكل دخيل، أما على مستوى القبائل فقد استمر الصراع الطبقي بين العامة والاعيان المحظوظين[3].

---

(1) نفس المصدر، ص: 99.

(2) نفس المصدر، ص: 100، حسن حسني عبد الوهاب، المرجع السابق، ص: 191.

(3) محمد الهادي الشريف. تاريخ تونس. تعريب محمد الشاوش ومحمد عجينة، دار سراس للنشر، تونس، 1980، ص: 83.

لقد اظهر حمودة باشا مقدرة وكفاءة تجاوزتا مقدرة جميع بايات تونس ، وذلك يتجلى من خلال علاقاته مع الدول الاوربية ، أو الدولة العثمانية ، أو بالنسبة لعلاقاته مع الايالتين المجاورتين لتونس وهما طرابلس والجزائر[1] . وقد كان فخورا بتلك الانجازات الهامة لكن الموت فاجأه ليلة عيد الفطر من سنة 1230 هـ/ 1814 م بعد حكم دام ثلاثا وثلاثين سنة[2].

وقد اختلف المؤرخون في سبب وفاته ، فهناك من يرى انه مات اثر سكتة قلبية ، وفريق يعتقد انه مات مسموما[3].

وبعد وفاته انتخب للولاية أخوه عثمان[4]، وكان رجلا ضعيف الشخصية لم يلبث ان وضع بينه وبين الرعية حجابا ، وتنكر لمحمود صاحب الحق في الولاية ، كما تنكر للوزير يوسف صاحب الطابع*[5] .

مما اتاح لمحمود الفرصة للتآمر عليه ، اذ كسب الى صفه معظم رجال الدولة ، فساندو مؤامرته التي اسفرت عن مقتل عثمان باي وأولاده[6].

---

(1) رشاد الامام ، سياسة حمودة باشا في تونس 1782 – 1814 . منشورات الجامعة التونسية ، 1980 ، ص : 75 .

(2)
Archive national de france , Mimoire sur Tunes et son commerce. AEB 3 , 304 daté le I5/I/I815.
Eugene Plantet, OPCIT , P: 525.
وكذلك :
بينما يحدد صاحب الاتحاف تاريخ وفاته بعام 1813 ، ويرى ان مدة ولايته كانت بمثابة الشباب للدولة ، ج 3 ، ص : 116 .

(3) AEB 3.304 ، ويرى (EUGENE Plantet) انه مات مسموما ، هامش ص: 525 .
اما القنصل البريطاني فانه يرى بأن عملية التسمم مختلقة ، رشاد الامام ، المرجع السابق ، ص: 76 . أما ابن ابي الضياف فيرجع سبب وفاته الى مرض في قلبه ، ج 3 ، ص : 116 .

(4) AEB 3 .304 ، الاتحاف ، ج 3 ، ص 120 – 121 .

(5) * . AEB 3.304 ، الاتحاف ، ج 3 ، ص: 121 . ورغم انه كان اول من بايعه بدل المبايعة لمحمود .

(6) AEB 3.304 [illegible]

وبذلك لم يستمر حكمه اكثر من ثلاثة اشهر وأيام ، ويقول ابن ابي الضياف بأنها ((كانت أيام مطر وخصب))(1).

وتولى الحكم بعده ابن عمه محمود باي الذي كان قد حرم من ولاية العهد ببيعة حمودة بها ، فسلك سياسة اللين والمهادنة مع الشعب وقد وصف بأنه كان حاكما عادلا(2).

ولعل اتباعه لسياسة اللين كان الهدف من ورائها ايهام العامة بأنه اعدل ممن سبقه ، وانه أجدر بالملك من غيره .

والواضح ان مهام الحكم في عهده كان يتولاها ابنه الاكبر ((حسين))(3)، ويبدو ان محمود باي كان يهدف الى تقليد خطى علي باي تجاه ابنه حمودة . ومن اهم الاحداث الداخلية التي حدثت في عهده (1815 ـ 1824) ثورة اطلق عليها ثورة الصعاليك سنة 1816* قادها ضابط** جمع حوله بعض صغار الضباط فأعلنوا خلع طاعة محمود باي ، وكتبوا عريضة وقعوها وأجبروا البعض على توقيعها ، ثم بعثوا بها الى ((استنبول)) وطالبوا فيها بعزل محمود باي ، وتعيين واحد منهم واليا على تونس ، ولكنه استطاع ان يقضي على هذه الثورة بكل سهولة(4).

ويرجع ابن ابي الضياف سبب هذه الثورة الى المفاسد التي علقت بجهاز الحكم خلال فترة هذا الباي ومن قتله لعلية القوم ، وتسريح اسرى النصارى بغير فدية(5).

---

(1) الاتحاف ، ج 5 ، ص : 132 .

(2) AEB 3.304

(3) AEB 3.304 ، ابن ابي الضياف ،الاتحاف ، ج 3 ، ص : 135 . حسن حسني ، الخلاصة ، ص : 192 . وفي غياب حسين بن محمود باي يقوم مقامه اخوه مصطفى ولكنه لا يتخذ قرارا في المسائل الرئيسية والحساسة .

* . أورد ابن ابي الضياف تفاصيلها في الجزء الثالث ، ص : 149 ـ 156 .

** . هو ابو العباس احمد حافظ الازمرلي .

(4) الاتحاف ، ج 3 ، ص : 152 ، الخلاصة ، ص : 192 . احسان حقي ، المرجع السابق ، ص : 113 .

(5) الاتحاف ، ج 3 ، ص : 149 .

ولعل هذه الثورة كانت بمثابة محاولة رد الاعتبار للجيش الانكشاري اثر هزيمته وتشريده من طرف حمودة باشا سنة 1811 وابتداء من هذه الثورة (1816) بدأ البايات يعرضون عن الجيش الانكشاري اعراضا كاملا ((وشردت الدولة تلك الطائفة))(1)* ، كما تعرضت تونس في عهده لوباء الطاعون سنة 1818 ، الذي انتشر بكامل الشمال الافريقي .

اما في مجال السياسة الخارجية فان محمود باي قد بدأ منذ توليه الحكم بالاستعداد لحرب الجزائر(2)، ولكن اسطوله تحطم اثر عاصفة هبت على ساحل تونس(3).

---

(1) نفس المصدر ، ص: 157 .

* . ونلاحظ هنا مدى التقارب الزمني في الاستغناء عن هذه الفئة من طرف الحكام في الولايات العثمانية بشمال افريقيا (الجزائر وتونس) ، وقد بين الزهار الطريقة التي اتبعها الداي علي خوجة في الجزائر سنة 1817 للتخلص من الجيش الانكشاري ، اما السلطان محمود الثاني فقد كانت محاولته الاولى سنة 1808 تتمثل في الزام الانكشارية بالانصياع الى الاصول العسكرية الحديثة المتبعة في اوربا التي قرر اتخاذها ، فأعلنوا الثورة عليه ، ولم يستطع اخماد ثورتهم الا بالرضوخ لمشيئتهم في رفض الاصول الجديدة .

(محمد فريد بك ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، مطبعة التقدم ، مصر ، 1312، ص : 197 — 198) .

مرجئا حسابه معهم لفرصة اخرى ، وفي عام 1926 اتخذ الحزم في تنفيذ خطته الاصلاحية للجيش ، ولما حاولوا التمرد والثورة كالمعتاد اطبقت عليهم وفق خطة مرسومة . وحدات المدفعية التي قام بتنظيمها مسبقا ، وابادهم ابادة تامة مع احراق ثكناتهم ، ثم اصدر مرسوما بالغاء النظام الانكشاري بتاتا . نفس المرجع ، ص : 219 — 220 .

(2) يذكر (F - 9/ 55 Q 1124) ان محمود باي كان يرغب في انهاء الخلاف بين البلدين وعقد الصلح مقابل مبلغ من المال يقدمه لحكام الجزائر، كما سيأتي ، روكاي ، ص : 514 .

(3) الاتحاف ، ج 3 ، ص : 172 — 173 .

وبعد وفاته تولى الحكم ابنه وولي عهده حسين باي سنة 1824، وقد وصف بالحزم والاخلاص في عمله (1)، اذ اعتمد في تسيير شؤون الحكم على رجال مدربين لديهم من الخبرة ما يؤهلهم لتسيير الامور، ومن هؤلاء الوزير شاكير صاحب الطابع، ووزير القلم محمد الاصرم وباش كاتبه عبد الوهاب الصمادحي، والقائد محمد الجلولي وغيرهم (2).

وفي عهده وقعت حادثتان هامتان، احداهما تحطيم الاسطول العثماني في واقعة نافرين سنة 1827، وقد أثرت هذه الحادثة تأثيرا كبيرا في السياسة التونسية، كما كان لها تأثير على الجزائر أيضا، وثانيهما استيلاء فرنساء على الجزائر سنة 1830.

ولعل هذا التأثير يبرز في أن كلا البلدين فقد اسطوله في هذه المعركة، وهو نقطة القوة بالنسبة لهما. وبفقدان هذه القوة اصبحا لقمة سائغة وتحت رحمة العدو الخارجي المتربص بهما.

اما على الصعيد الداخلي فقد قام بعدة اصلاحات داخلية لتنظيم الجيش تنظيما حديثا، وسن قانون العشر في الضريبة (3)، واستمر في الحكم حتى سنة 1835 تاريخ وفاته.

ثانيا : الاوضاع الاجتماعية :.

لعل اول ما يلاحظ في هذا المجال ان التأريخ للجانب الاجتماعي في المغرب العربي -عموما- أثناء العهد العثماني كان ضئيلا، ان لم نقل منعدما، ذلك ان الكتابات التي كتبت معظمها يتناول الجانب السياسي حتى وان كانت هذه الكتابات من أبناء البلاد انفسهم.

---

(1) AEB 3.304، حسن حسني عبد الوهاب، المرجع السابق، ص: 195.
(2) حسن حسني عبد الوهاب، نفس المرجع، ص: 195.
(3) الاتحاف، ج 3، ص: 203 - 204. الخلاصة، ص: 197.

ولعل مرد ذلك الى ان نظم الحكم آنذاك لم تكن مهتمة بهذا الميدان ومن ثم لم تحمل على التدوين ، حتى يستطيع الدارس ان يرجع الى هذه المصادر ، ومن جهة أخرى فان معظم المؤرخين الاجانب الذين تناولوا هذه الفترة — العهد العثماني — لم يعنوا سوى بالجوانب السياسية التي تخدم أغراضهم ومصالح بلدانهم الاستعمارية ، اما المؤرخون من ابناء البلاد فانهم مازلوا يتجنبون الكتابة في هذه الجوانب نظرا لما تتطلبه من عناء وجهد كبير ، وايما كانت المادة شحيحة في هذا الميدان فانني سأحاول القاء نظرة على الوضع الاجتماعي في تونس — خلال الفترة — في حدود ما تسمح به المراجع التي تمكنت من الرجوع اليها . لقد كان المجتمع التونسي مقسما الى ثلاث طبقات :

<u>أولا</u> = اهل المدن ((وهم على انجاب من الحضارة ، وجل احترافهم التجارة))[1] وقد احتكروا الصناعات التقليدية كصناعة الشاشية* خاصة التي كانت تجارتها رائجة بالخارج ، وبالتالي فقد ((كان التجار والصناع اثرى طبقات المجتمع))[2] .

<u>ثانيا</u> : اهل الريف : أي الفلاحون الذين يقومون بزراعة الارض وفلاحتها ، وقد استمال الحكام شيوخهم** واعيانهم بطرق شتى منها الاعفاء من

---

(1) حمودة بن محمد عبد العزيز ، الكتاب الباشي ، تحقيق محمد ماضور ، الدار التونسية للنشر ، ج 1 ، 1970 ، مقدمة المحقق ، ص : 12 .

* . اشتهرت صناعة الشاشية التونسية ، لكنها حوصرت من طرف الشاشية الاجنبية في عهد حمودة باشا ، خاصة تلك التي تصنع في فرنسا (مرسيليا) ، ويورد عثمان الكعاك اصل وكيفية صناعة هذه الشاشية في كتابه " العلاقات بين تونس وايران عبر التاريخ " الدار التونسية للنشر ، تونس 1972 ، ص : 132 — 137 .

(2) نفس المرجع ، (مقدمة المحقق) ، ص : 12 .

** . جمع شيخ وهو في العرف الادارى نائب السلطة في القرى والارياف . [illegible] ص : 13 .

الضرائب ، والنعم والالقاب الشرفية ، والعلاقات الخاصة مع البباي أو مع اكبر وزرائه[1]، وبذلك تمكن الحكام من استمالة هؤلاء الى صفهم، بالاضافة الى ان اهل الريف هم ميالون الى الهدوء والاستقرار حتى يحافظوا على ارزاقهم وممتلكاتهم[2].

ثالثا : البدو الرحل : وهم الذين يقومون بتربية المواشي والتنقل بها بحثا عن الماء والكلأ، وهذه الفئة الاجتماعية تعتبر مستقلة، وغير خاضعة للحكم، لتنقلها وعدم استقرارها في مكان معين[3]، ونتيجة لعدم خضوعها للحكم المركزي، فانها كثيرا ما كانت تقلقه باضطراباتها أو اغاراتها بعضها على بعض اخذا للثأر، أو لتحصيل مادة العيش عن طريق النهب، وقد كانت هذه الفئة القاعدة الخلفية لاي متمرد على الحكم يلتجئ اليها لمساعدة حركته مقابل تقديم وعود لهم وكثيرا ما كانت تنظم مجموعات بكاملها لمؤازرة الثائرين ضد الحكم مما جعل الحكام يحسبون لهذه القبائل حسابها.

ومما زاد في تعقيد المشكلة ان هذه القبائل كانت تنتقل من بلد الى آخر كلما اغضبتها دولة نزحت الى أخرى. كما تكرر ذلك مرارا على الحدود الجزائرية التونسية، كقبيلة لحنانشة، والنمامشة من الجزائر، والهمامة وورغمة من تونس[4]. وهي من بين الاسباب التي كثيرا ما عكرت العلاقات بين البلدين ومهما يكن من صحة هذا التقسيم فان العلاقة بين افراد المجتمع وحكامهم كانت حسنة - نسبيا - اذا ما قورنت بما كان موجودا بالجزائر من اوضاع لان الحكم في تونس كان بيد عائلة يتوارثه افرادها فيما بينهم حسب قوانين معينة احترمت هذه القوانين ام لم تحترمها. وبمرور الوقت يمكن القول ان اجهزة الحكم في تونس (تتونست) بخلاف ما كان موجودا بالجزائر، اذ اقتصر منصب الحاكم في الجزائر على العنصر الاجنبي دون غيره

---

(1) محمد الهادي الشريف، المرجع السابق، ص : 38 .

(2) حمودة بن محمد عبد العزيز، المرجع السابق، مقدمة المحقق، ص : 13 .

(3) نفس المرجع، نفس الصفحة .

(4) نفس المرجع، نفس الصفحة .

لكن من يعني ذلك ان افراد المجتمع التونسي كانوا يعيشون في نعيم في ظل هؤلاء البايات ؟ بطبيعة الحال لا ، لانه كثيرا ما مورست تجاوزات عديدة من طرف البايات، وعمالهم ، كانت ضحيتها الجماهير ، لقد كانت تلك الجماهير الشعبية مقهورة ومستغلة من قبل البايات واعوانهم والموالين لهم ،ولكن حينما تسمح الظروف بتوفير مداخيل متيسرة للايالة ، وللفئات الاجتماعية التي كانت لها علاقة بالنشاط البحري كما حدث اثناء فترة تولى حمودة باشا الحكم (1782 — 1814) فان الاستغلال تخف وطأته *(1) .

ولعل ذلك من بين الاسباب التي ادت الى التوازن السياسي الذى كان قائما في نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر في تونس .

المجاعات والاوبئة :

تعرضت ايالة تونس في نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر لعدة مجاعات ، واوبئة كان لها تأثيرها على الحياة الاجتماعية والاقتصادية .

ففي سنة 1792 ظهر الوباء ، وبالرغم من ان ظهوره كان خفيف الوطأة ، الا ان ذلك لم يمنع من اتخاذ الاجراءات الوقائية ، ثم ظهر ثانية سنة 1794 ، ((وذهبت ضحاياه كثيرة))(2) .

---

* . نفس الشيء تعرضت له الجماهير الشعبية بالجزائر بعد تقلص مورد الجهاد البحرى واصبح المواطن الجزائرى مصدر ابتزاز ، واثقل كاهله بالضرائب ، حتى يعوض الحكام النقص الذى تعرضت له الخزينة .

(1) محمد الهادي الشريف ، المرجع السابق ، ص : 94 .

(2) رشاد الامام ، المرجع السابق ، ص : 258 . [illegible] الادبي ، [illegible] التاسع عشر ، [illegible] اصحاب الدار [illegible]

[illegible]

ويبدو ان هذا الوباء لم تنقطع جذوره اذ استمر حتى سنة 1795 الشيء الذي عطل الحركة التجارية*، كما عم البلاد سنة 1797 وباء آخر مات على اثره ((اربعة آلاف شخص في مدة اربعة ايام في مدينة تونس وحدها))(1).

وقد اورد القنصل البريطاني ماجرا** ( ) في رسالة الى حكومته عدد ضحايا ذلك الوباء الذي دام ثلاثة اشهر كالتالي : عشرون الف تونسي، سبعمائة يهودي، ومائة وخمسون مسيحي(2).

وفي سنة 1805-1804 تعرضت تونس الى مجاعة ، وكان سببها حسب ما اورده ابن ابي الضياف، عدم نزول المطر، ووقوع القحط الشديد ((وتعسر الاتيان بالميرة لوقوع الحروب يومئذ))(3).

ويبدو ان هذه المجاعة شملت الشرق الجزائري وتونس، لانهما وقعت في فترة زمنية واحدة اولا ، وثانيا اتفاق كل من ابن ابي الضياف والمنور العنترى حول اسباب هذه المجاعات(4).

كان وقع هذه المجاعة على تونس شديدا مما اضطر الباي الى ارسال ابراهيم الرياحي كسفير عنه لدى سلطان المغرب مولاي سليمان ليمده (بالميرة لحدوث المسغبة بالبلاد التونسية ... وأمده بمطلبه من الميرة وبهدية جليلة))(5).

---

*. اضطر حمودة باشا الى اتخاذ سياسة صارمة لحماية البلاد من الوباء ، وذلك بفرض رقابة السفن الاتية من الشرق خاصة ايام ظهور الوباء ، رشاد الامام المرجع السابق، ص: 316 .

(1) نفس المرجع، ص: 259 .

** . ٢٩٥٤٢٩ MO قنصل بريطانيا في تونس من مارس 1790 الى 1804.

(2) نفس المرجع ، ص: 259 .

(3) المصدر السابق ، ج 3 ، ص: 54 .

(4) العنترى ، المجاعات ، المصدر السابق ، ص: 33 – 34 .

(5) ابو العباس احمد بن خالد الناصري ، الاستقصاء لاخبار دول المغرب الاقصى ، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ، ومحمد الناصري ، ج 8 ، دار الكتاب ، الدار البيضاء ، 1956 ، ص: 118 .

وعند وصول تلك المؤن باعها الباي بأقل من ثمنها واعطى جزءا منها للعاجزين دون مقابل(1).

ولم يكتف الباي بهذه الامدادات بل نجده يبعث بسفنه الى البحر الاسود قصد استيراد الحبوب(2).

وطبيعي ان تكون لهذه المجاعة نتائج سيئة على الفلاحة والصناعة والتجارة(3). كما تعرضت تونس لوباء سنة 1818 *، واستمر حوالي عامين، ومات بسببه الكثير من الناس، اذ يقدر ابن ابي الضياف — وهو معاصر له — الضحايا ب ((أكثر من الالف في اليوم))(4)**، وكان لهذا الوباء تأثيرا كبيرا خاصة على اهل الريف اذ تعطلت الزراعة بسببه وحدث نقص كبير في الموارد بالبلاد(5).

وانتهاء ولاية حسين باي بن محمود (1824 — 1835) اصيبت البلاد بقحط سنة 1829 أمر على اثره باستيراد المؤن من ماله الخاص(6) ***

---

(1) احمد بن ابي الضياف، المصدر السابق، ج 3، ص: 113.

(2) رشاد الامام، المرجع السابق، ص: 259.

(3) اسماعيل العربي، العلاقات الدبلوماسية بين دول المغرب والولايات المتحدة 1776 — 1816، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1978، ص: 127.

* . انتشر هذا الوباء بكامل الشمال الافريقي . الاتحاف، ج 3، ص: 165 . هامش 9.

(4) نفس المصدر، ج 3، ص: 165.

** . وهو رقم مبالغ فيه دون شك حيث استمر هذا الوباء مدة عامين وبعملية حسابية نستنتج ان سبعمائة وثلاثون ألف نسمة قد توفوا نتيجة لهذا الوباء وهو رقم ضخم .

(5) نفس المصدر، ص: 167.

(6) نفس المصدر، ص: 207 — 208.

*** . تجب الاشارة هنا الى ان المؤلف يؤرخ لولي نعمته حسين باي، الذي عينه في ديوان الانشاء بمحكمته، كما اختصه بكتابة سره، اواخر افريل 1827، ولذلك نجده يبالغ كثيرا عندما يقول بأن الباي استورد المؤن من ماله الخاص.

ثالثا : الوضع الاقتصادي :

ان مجالات الاقتصاد التونسي خلال تلك الفترة شملت ميادين الزراعة الصناعية والتجارية .

1 - الزراعة : اشتهرت تونس كجارتها الجزائر بأراضيها الواسعة وتربتها الخصبة ومناخها الرطب، ولذلك فقد كانت اراضيها منتجة لكنها كانت مهملة*(1).

ونظرا لخصوبة تربتها فقد وجدت فيها كل انواع الحبوب من حنطة وشعير كما وجدت بها مختلف الخضروات، واشتهرت تونس بزراعة الزيتون الذي لا يتأثر بالبرودة يخصص جزء منه للاستهلاك المحلي والاخر يصدر الى الخارج خاصة مصر واوربا(2).

واشتهرت منطقة الجريد بانتاج التمور لتوفر المياه والمناخ الحار، ويعتبر الغذاء الاساسي لسكان هذه المنطقة(3).

وبالرغم من ان تونس اشتهرت بثروتها الفلاحية الا ان نصيب الطبقات الشعبية فيها كان ضئيلا، اذ استحوذ البايات وحاشيتهم على المزارع الكبرى مستغلين ومعتمدين في فلاحتها على الطبقة الفقيرة(4).

وفي عهد حمودة باشا عمل كل ما في وسعه للنهوض بهذا المجال رغبة منه في زيادة الانتاج الزراعي، فحث على العمل في الزراعة، بل اشتغل فيها بنفسه** حتى يقتدى به غيره(5)، ولتشجيع الفلاحين اكثر كان يلجأ في بعض الاحيان الى شراء المحصول منهم،

---

(1) Eugene plantet, opcit P: 546 وكذلك AEB3.304

(2) AE B 3.304

(3) AEB 3.304

(4) Eugene, opcit P 546

* يجب ان نلاحظ هنا ان الكتاب الاوربيين والفرنسيين خاصة نجدهم ينوهون بخيرات وخصوبة الارض في كل من تونس والجزائر، الا اننا نجدهم في النهاية يذكرون بانها غير مستغلة، ولعلهم يريدون من وراء ذلك التمهيد (لاستعمارها) واستغلال خيراتها.

** . كان حمودة يعمل بمزرعة " المرناقية" وهي مزرعة كبيرة له تقع شمال تونس.

(5) ابن ابي الضياف، ج 3 ، المصدر السابق، ص: 102 .

ظلم يصدره الى الخارج بأسعار مرتفعة[1]، وذلك بعد ان غير النظام الجبائي الذى كان مجحفا بحق هؤلاء الفلاحين وهو ما كان يعرف ((بالخلاص*)) ، لكن العمال** كانوا يستغلون طرقا اخرى للحصول على أموال الرعية وهو ما كانوا يسمونه بـ ((الضيفة)) و ((الوهبة))[2].

وبعد ان تولى حمودة باشا استبدل بهذا النظام نظاما آخر سمي بـ ((الاتفاق***)) الذى اقترحه عليه وزيره وكاتبه حمودة بن عبد العزيز+.

ويرى ابن ابي الضياف[3] ان ذلك يعتبر بمثابة جسر لظلم الرعية . وقد استمر هذا التنظيم الى سنة 1855 عندما جرى سن قانون جديد آخر للجباية[4] . ومهما كانت قوانين الجباية تلك فان الانتاج الزراعي عرف تحسنا ملموسا نتيجة لسياسة حمودة باشا في هذا المجال ، ولعله ادرك قيمة الارباح والفوائد التي كان يدرها هذا القطاع مستغلا في ذلك ((كثرة طلب اوربا للمواد الغذائية))[5] واستمر هذا الطلب حتى بعد وفاته .

اذ يذكر ((Devoize****)) في تقرير الى حكومته بعد وفاة حمودة باشا بنحو ثلاثة أشهر ان تونس تبيع زيت الزيتون والحبوب الى مصر والى جميع البلدان الاوربية[6].

---

(1) رشاد الامام ، المرجع السابق ، ص : 265 .

* . وهو مقدار العشر من مدخول الزراعة .

** . كلمة العامل تعني القايد التي كانت تستعمل في الجزائر .

(2) ابن ابي الضياف ، ج 3 ، المصدر السابق ، ص : 22 .

*** . الاتفاق : مجموع ما يدفعه العمال الى الحكام .

+ . صاحب كتاب التاريخ الباشي ، توفي سنة 1788 .

(3) الاتحاف ، ج 3 ، ص : 23 — 24 .

(4) نفس المصدر ، ص : 26 .

(5) رشاد الامام ، المرجع السابق ، ص : 265 .

**** . Devoize ، قنصل فرنسا بتونس خلال السنوات : 1792 — 1796 ، 1798 — 1808 ، 1815 — 1813 .

(6) نفس المرجع ، ص : 265 .

ولعــل حمـودة باشــا كان يهـدف من وراء سياسته تلـك الـى ايجـاد دولـة قـوية داخليـا حتى يستطيـع ان يواجـه المشاكـل الخارجية ، ومن ثـم يمكـن له ان يحافـظ على عرشـه ((اذ لا سلطـان الا بمـال))[1]. كما عبـر عن ذلـك ابن ابـي الضيـاف : وقـد اشتهـرت تونس بعـدة محاصيـل زراعيـة مثـل : القمـح والشعـير ، والـذرة والحمص ، والقطـن ، وقصـب السكر ، والدخيـل ، والحوامـض ، والزيتـون[2]. كمـا اشتهـرت بزيتونهـا خاصـة ، والـذى تعـود فائـدتـه الـى البـايـات[3]. وقـد كـانت الثـروة الحيـوانية مـزدهـرة نسبيـا – رغـم القحـط والمجـاعات التي تعرضـت لهـا تونـس خـلال تلـك الفـترة ، فقـد اشتهـرت اغنـام تونـس بكثـرة شحمهـا وكثـافـة صوفهـا . وحرصـا من حمـودة بـاشـا على ارتشـاع الانتـاج بعـد سنـة 1807 ((امـر بمنـع ذبـح البقـر والغنـم والمعـز في البـلاد التونسيـة لمـدة محددة))[4] الـى جـانب تربيـة الابـل التي كـانت وسيلـة النقـل المفضلـة لكونها لا تتطلب نفقـات باهضـة اولا ، ولقـدرتهـا علـى التحمـل لمـدة زمنيـة اكثـر[3].

بالاضـافـة الى ذلك خدمات البغـال والحمير التي يعتمـد عليهـا في النقـل وحراثـة الارض فهـي كثـيرة ، الى جـانب الخيـول التي كـانت تصدر والابقـار التي لا تـدر الا كميـات قليلـة من الحليـب[5].

اما الثـروة السمكيـة فانهـا كانت موجـودة بكثـرة على السواحـل التونسيـة ، ولذلك كان الحكـام يشـرفون بأنفسهـم على صيـاديهـا ، ونظـرا للنفقـات الباهضـة التي تتطلبهـا عمليـات الصيـد فقـد اهملـت[6].

---

(1) الاتحاف ، ج 3 ، ص : 17.
(2) محمد العربي الزبيرى ، المدخل ، المرجع السابق ، ص : 122.
(3) A E B 3.304
(4) رشاد الامام ، المرجع السابق ، ص : 262.
(3) A E B 3.304
(5) A E B 3.304
(6) A E B 3.304

وعلى العموم فان السكان كانوا يصطادون السمك من الوديان، اما الصيد البحرى فكان يعتبر عند التونسيين مغامرة خطيرة نظرا لمرور القراصنة على تلك السواحل (1).

2ـ التجارة : لقد شهدت تونس ازدهارا تجاريا في نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر، وذلك بسبب تشجيع حمودة باشا لهذا الجانب الحيوى من الاقتصاد، وقد وصف صاحب الاتحاف ذلك بقوله : ((وأقبلت الناس في دولته على الفلاحة والمتاجر، والمبايعات وكثر العمران، ونمت الاموال، وظهرت الثروة))(2).

ويرى البعض بأن الازدهار التجارى الذى عرفته تونس خلال تلك الفترة يعود الى ان تونس كانت اكثر استقرارا من الدول المجاورة لها (3).

لقد نشطت التجارة الداخلية في تونس خلال فترة تولى حمودة باشا، وكانت تتم عن طريق القوافل التجارية في البلاد التونسية شمالا وجنوبا كما بلغ سوقا تجارية بتونس(4)، وحتى يضمن تطور التجارة الداخلية اكثر نجده يمنع التجار الاجانب من ابتياع المحصولات الزراعية، وحصر ذلك بيد التجار التونسيين (5) لضمان ربحهم، وحماية الفلاحين من الاستغلال الذى كان يحصل لهم عندما يبيعون كل محصولهم او جزء منه قبل الحصاد بأثمان بخسة (6).

---

(1) AEB 3.304

(2) ابن ابي الضياف، المصدر السابق، ص: 102.

(3) AEB 3.304

(4) رشاد الامام، سياسة حمودة باشا في المجال التجارى، المجلة التاريخية المغربية، عدد 2 : جويلية 1974، ص : 86 .

(5) رشاد الامام، سياسة حمودة باشا في تونس، المرجع السابق، ص : 277 .

(6) رشاد الامام، المجلة التاريخية، المرجع السابق، ص : 85 .

ولعل ذلك ما ادى الى تكوين شبه ((بورجوازية)) محلية ، اذ اشتهرت عائلات في هذا المجال أمثال : آل الجلولي ، وابن عياد ، وكبار التجار العاملين بالاشتراك مع البايات مثل الحاج يونس بن يونس الجربي[1] ويوسف صاحب الطابع[2].

ويبدو ان البايات قد ارتبطوا مصلحيا مع حاشيتهم ذلك لان الارباح التي كانت تدرها هذه التجارة تؤول في النهاية الى جيوبهم ، وبهذا يمكن القول ان الترابط الذى كان موجودا بين السياسة والاقتصاد كانت له سلبياته أيضا ، والا كيف نفسر انقلاب الاوضاع بعد موت حمودة باشا . اذ نلاحظ ان محمود باي استهل حكمه بتصفية الفريق الذى كان يحيط بسلفه — حمودة — والمنتفع سياسيا ، واقتصاديا ، وعلى رأسهم يوسف صاحب الطابع[3].

ولا شك ان الحاشية التي استفادت من مركزها في العهد السابق ، ومارست التجارة التي درت عليها اموالا معتبرة ، قد اصيبت بتقهقر خلال فترة محمود باي ، كما ان الظروف الخارجية بالنسبة للتجارة التونسية اصبحت غير مواتية ، اذ تغيرت ظروف التبادل التجارى مع اوربا ، مما ادى الى انحطاط قيمة المنتجات التي تصدرها البلاد التونسية ، وبالتدريج انتقلت عملية التصدير ، وبالتالي فوائدها الى جيوب التجار الاوربيين[4] ، وحصل تضخم في الواردات التي كان يقوم بجلبها هؤلاء التجار[5] ، ولعل ذلك ما ادى الى تدهور النشاط التجارى في تونس خلال فترة 1815 — 1830 ، ثم اعقبتها فترة الاصلاحات .

---

(1) محمد الهادى الشريف ، المرجع السابق ، ص : 93 .

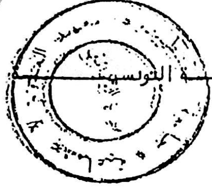
(2) لم يهتم السكان خلال هذه الفترة بممارسة التجارة الخارجية ، وانما اقتصر ذلك على اشخاص معينين ، حسن حسني عبد الوهاب ، المرجع السابق ، ص : 195 .

(3) ابن ابي الضياف ، ج 3 ، المصدر السابق ، ص : 141 — 142 .

(4) محمد الهادى الشريف ، المرجع السابق ، ص : 96 .

(5) نفس المرجع ، ونفس الصفحة .

جامعة قسنطينة
معهد العلوم الاجتماعية
دائرة التاريخ



العلاقات السياسية الجزائرية التونسية

1800 – 1830

بحث لنيل دبلوم الدراسات المعمقة
في التاريخ الحديث

من تقديم الطالب : فيلالي السايح
تحت اشراف : الدكتور توفيق بورو

السنة الجامعية : 1982 – 1983

عز الدين ...

فهـــرس المحتـــوى

3 ـ الصناعة : لم يكن لتونس في الفترة التي ندرسها صناعة بأتم معنى الكلمة وانما كانت هناك صناعة تقليدية تتمثل في صناعة الشاشية وبعض الصناعات النسيجية الاخرى التي توارثها الابناء عن الاباء ، اذ يرجع تاريخ صناعة الشاشية الى عهد الحفصيين*، ولكنها كانت ضعيفة ثم تطورت بعد ان استوطن المهاجرون الاندلسيون البلاد ، وتشجيعا لهم للعمل بهذه الصناعة قدم لهم الداى عثمان** الاعانات ، مما شجع على انتشارها ، ((وحصل للحاضرة من هذه الصناعة ثروة واسعة))(1).

وبعد ان تولى حمودة باشا مقاليد الحكم شجع الصناعة ، وارتفعت مكانة المشتغلين بها ، واصبح أمناؤهم من الاعيان(2). وقد تعرضت هذه الصناعة الى منافسة الشاشية المصنوعة في مرسيليا واورليان (   ) والتي كانت تباع بأثمان رخيصة(3).

ويرجع ابن ابي الضياف سبب تدهور هذه الصناعة الى اقصاء محمد لعروسي الاندلسي أمين التجار وصناع الشاشية سنة 1223(4).

وشجع حمودة باشا المنسوجات الاخرى ، وحث على لبس المحلية منها والعزوف عن المنسوجات المستوردة(5).

---

* . حكمت السلالة الحفصية في تونس مايقرب من ثلاثمائة وخمسين عاما، 626 هـ ـ 981 هـ ، الموافق لسنة 1223 م ـ 1573 م .

** . استقل بمنصب الداى ابتداء من سنة 1598 واستمر في منصبه الى غاية 1610 .

(1) ابن ابي الضياف ، ج 2، المصدر السابق ، ص : 35 .

(2) نفس المصدر ج 3 ، ص : 40 .

(3) A EB 3.304

(4) الاتحاف ، ج 3 ، ص : 207 .

(5) رشاد الامام ، المرجع السابق ، ص : 274 .

ولعله ادرك سياسة الدول الاوربية التي كانت تبذل كل ما في وسعها لتبقى تونس، وبلدان المغرب العربي كافة بعيدة عن الثورة الصناعية التي بدأت بوادرها تظهر في القرن الثامن عشر، حتى تظل هذه البلدان سوقا تجارية تبيع فيها منتوجاتها المصنوعة، ومصدرا هاما للموارد الاولية بأرخص الاثمان(1).

كما وجدت في تونس صناعة المنسوجات المتمثلة في نسج الكتان والحرير والصوف الى جانب ذلك انتشرت صناعة الحلي غير ان معظمها كان ((بيد التجار والصناع اليهود))(2).

---

(1) محمد العربي الزبيري، المدخل، المرجع السابق، ص: 123.
(2) رشاد الامام، المرجع السابق، ص: 276.

= الفصل الثالث =

الفصل الثالث

العلاقات الجزائرية التونسية في المجال السياسي

لعله من الافضل قبل التطرق للعلاقات السياسية بين الايالتين اعطاء لمحة عن وضعية الحدود بينهما وذلك لعدة اعتبارات منها :—
ان الحدود السياسية التي رسمت بين البلدين سنة 1623 [1] هي الحدود الحالية تقريبا [2]. الا انه كثيرا ما كانت مشكلة الحدود وبعض المواقع الاستيراتيجية سببا من أسباب النزاع، واستمرار الخلاف بينهما حول مواقع معينة، كعيناء حلق الوادي، وكاب نيقر، وطبرقة. وتمسك حكام الجزائر برأيهم ومطالبتهم لحكام تونس الاعتراف علنا بتبعية هذه المراكز للجزائر. ولعل القصد من ذلك هو كسب مواقع استراتيجية ليس الا، اضافة الى بعض الصراعات التي كانت تنشب بين قبائل البلدين حول الحدود الفاصلة بينهما كما سيأتي.
ومهما يكن فان الحدود السياسية التي كانت تفصل بين الايالتين هي :
من وادى صرات * Sarrath حتى يلتقي بوادى مرجانة ثم البحر [3].
والى الجنوب من وادى صرات نجدها تمتد بين واحتين احداهما تابعة للجزائر وهي وادى سوف، والثانية تابعة لايالة تونس وهي بلاد الجريد [4].

---

(1) ابن ابي دينار، المؤنس في اخبار افريقيا وتونس، تحقيق وتعليق محمد شمام، المكتبة العتيقة تونس، ط3، بدون تاريخ، ص: 208.
— ابن ابي الضياف، الاتحاف، ج 2، ص: 39.
لم يتعرض كل منهما لتفاصيل ذلك، وذكر محمد بن عبد القادر، المرجع السابق، ص: 124 ان : ((اول حرب وقعت سنة 1614 بين الايالتين بسبب الحدود، واختتمت بصلح سنة 1628 التي تم فيها تعيين الحدود)).
(2) أنظر : الخريطة في الملحق رقم: (5).
* . نهر ينبع من بلاد بني مراد الواقعة الى الشرق من الاوراس.
(3) ناصر الدين سعيدوني، مذكرة حول اقليم قسنطينة، المرجع السابق، ص: 11.
(4) ROZET et CARETTE , OPCIT, P. 1

لكن كيف نستطيع معرفة معالم الحدود في هذه المنطقة الصحراوية ؟ ان هذه المنطقة كانت توجد بها قبيلتان هما : الهمامة التونسية ، والرايح الجزائرية ، وكان هناك شبه اتفاق بين القبيلتين ، فالرايح لا يجتازون جبل بوساب ، والهمامة لا يسمح لهم باجتياز البئر الاصلي* الى الشمال من هذه المنطقة يوجد شط ملغيغ ، وفيه تظهر بعض النباتات الصحراوية ، والتي تستغلها القبيلتان الفراشيس التونسية ، والنمامشة الجزائرية ، ويفصل بينهما نهر على طول الحدود ، وهو وادى هلال الذى يبدأ جنوب تبسة(1).

التمثيل الدبلوماسي للجزائر لدى الايالة التونسية .

كان للجزائر في تونس ممثلان : ممثل داي الجزائر ، وممثل بباي قسنطينة ، وكانت مهمة هذين الممثلين تتمثل في الاشراف وتسيير شؤون الجزائر السياسية والاقتصادية في تونس وبذلك يمكن القول بأن هذا المنصب كان منصبا دبلوماسيا .

لكن الذى يسترعي الانتباه هو التسميات التي كانت تطلق على القائمين بهذا المنصب :

فالقنصل البريطاني ماجرا (1796) استعمل كلمة ((القنصل الجزائرى بتونس))(2)

أما دايات الجزائر فكانوا يطلقون عليه اسم ((القائم بأعمال الجزائر بتونس))(3)

أما DOVOIZ فيسميه ((وكيل الجزائر بتونس)) AGENT ، وهي التسمية التي قال بها ابن ابي الضياف .

---

* . بين جبل بوناب والبئر الاصلي حوالي 25 كلم .

(1) IBID, P : 2

(2) رشاد الامام ، المرجع السابق ، ص : 334 .

(3) Eugene Plantet, corrispondance des Deys d'Alger avec la cour de France , 1579- 1833 Tome second , 1700 - 1833, P: 478.

أما حمدان خوجة فيطلق عليه اسم ((وكيل الجزائر او القائم بأعمالها))(1). ويطلق عليه احمد بن المبارك والعنترى اسم ((وكيل(2) وبورد العنترى ان وكيل الجزائر بتونس يختار من الشخصيات المرموقة في المجتمع والمتمتعة بالكفاءة العالية والمهارة الدبلوماسية . ووكيل الجزائر بتونس ينطلق من قسنطينة بعد موافقة الداي على تعيينه لان العادة جرت أن ((يلبس على يد باي قسنطينة))(3).

واثناء الفترة التي ندرسها ، وبعد اغتيال الحاج محمد البرادعي في نهاية القرن الثامن عشر ، عين في مكانه ممثل آخر الى ان طرد من قبل حمودة باشا اثر اعلانه الحرب على الجزائر ، وفي اواخر عهد الداي احمد عين في هذا المنصب الحاج عمار بن زقودلة ، ولم اعثر على اسماء وكلاء الجزائر بتونس بعد ذلك في المصادر والمراجع التي تمكنت من الرجوع اليها . لكن ذلك لا يعني ان هذه الفترة لم يكن للجزائر بتونس وكلاء .

صحيح ان الفترة التي تولى فيها الحكم بالجزائر الداي الحاج علي كانت فترة صراع مستمر وحروب متتالية بين الايالتين خاصة منها البحرية ، الا اننا لا نستطيع القول بأن العلاقات السياسية كانت متدهورة ، بل العكس فقد كانت هناك محاولات من الطرفين للتوصل الى الصلح من تلقاء انفسهما حينا ، وبالتدخل من الباب العالي حينا آخر .

---

(1) المصدر السابق ، ص : 164 .

(2) احمد بن المبارك ، تاريخ حاضرة قسنطينة ، تحقيق رابح بونار ، بدون تاريخ ، ص : 43 ، 51 . العنترى ، فريدة منسية ، ص : 107 .

(3) العنترى ، نفس المصدر ، نفس الصفحة .

ويورد لنا حمدان خوجة دليلا بامكاننا اعتماده ، وهو ان احمد باي بعد رجوعه من الجزائر العاصمة الى قسنطينة بعد أن انهزمت القوات الجزائرية أمام الغزو الفرنسي ، راسل سكان القاطعة ، ومنهم سكان عنابة الذين ((ولى عليهم المسمى الحاج عمار الذى كان وكيلا له في تونس))(1).

وهو ما يثبت لنا استمرار هذا المنصب للجزائر في تونس الى غاية الاحتلال الفرنسي للجزائر . لكن اذا كان للجزائر في هذه الفترة وكلاء بتونس ، فهل كان لتونس منصب مقابل له بالجزائر ؟

كان لتونس وكلاء في كل من جبل طارق ، وجنوة ، ومرسيليا ، ومصر ، وأزمير(2). أما في الجزائر فلم يكن لها ممثل على غرار ما كان لها من ممثلين في دول اخرى .

ولعل ذلك يرجع الى ان حكام الجزائر كانوا ينظرون الى تونس على اساس انها تابعة لهم سياسيا وفي حالة اعترافهم بوكيل لها لديهم، فان ذلك يعني الاعتراف باستقلالها عنهم .

---

(1) حمدان خوجة ، المصدر السابق ، ص : 223 .

(2) رشاد الامام ، المرجع السابق ، ص : 416 .

المسالة العامة للعلاقات بين البلدين في نهاية القرن الثامن عشر والربع الاول من القرن التاسع عشر

عندما استقر العثمانيون بالجزائر اتخذوها مقرا لحكمهم في شمال افريقيا وقاعدة لانطلاق فتوحاتهم، فتحوا طرابلس (ليبيا) سنة 1551، وأخذ درغوث* باشا المبادرة بالهجوم على البلاد التونسية محتلا بادئ الأمر قفصة، ثم القيروان وتمركز في الوسط التونسي. وبعد مد وجزر وفق العثمانيون اخيرا في الاستيلاء على تونس في شهر جويلية 1574 (1) بقيادة سنان باشا**.

وابتداء من هذا التاريخ اصبحت كل من تونس وطرابلس تابعتين للجزائر (2). وبعد ان فصل الباب العالي الولايات الثلاث أصبح لكل ولاية حاكم مستقل عن الاخر وهو ما عرف بنظام الباشوات، وجهاز اداري خاص.

(*) درغوث باشا : المعروف ايضا باسم طورغوث او طرغول في بعض الكتب، وعند الافرنج ((دراغوت)) وهو الذي خلف خير الدين بربروس على قيادة الاسطول العثماني (اي قبودان باشا) وقد توفي في اواسط عام 1565 اثناء حصار الاسطول العثماني لجزيرة ((مالطة)) محمد فريد بك المحامي، المرجع السابق، ص : 107.

(1) ابن ابي دينار، المصدر السابق، ص : 186. الاتحاف، ج 2، ص: 23، ولكننا نجد محمد فريد بك المحامي، يذكر ان فتح تونس على يد سنان باشا، قد جرى في اوت 1575. المرجع السابق، ص : 112.

** . سنان باشا : كان من القواد العظام وكبار الوزراء في الدولة العثمانية توفي سنة 1004 هـ.

(2) محفوظ قداش، المرجع السابق، ص : 11 .

ولعل لجوء الباب العالي الى هذا التقسيم مرده الى كبح قوة حكام الجزائر ، وعدم استئثارهم بمنطقة شمال افريقيا كلها ، وهو ما يعطي لهم قوة وسلطانا يؤهلهم فيما بعد الى منافسة مقر الخلافة ذاتها خاصة في هذه الاقاليم النائية . ورغم التقسيم السياسي الجديد وخروج تونس وطرابلس من التبعية السياسية للجزائر ، وما نتج عن ذلك من ضعف ايالة الجزائر كمركز للثقل فان حكام الجزائر الذين تداولوا الحكم - طيلة العهد العثماني - لم يتخلوا عن فكرة تبعية تونس للجزائر .

ويرى السيد مسعود ان ذلك يرجع الى ايمانهم بأن ايالة الجزائر أعرق في النشأة ، كما انهم الورثة الشرعيون لحكم "الباي لربای" ، ولم يكونوا يقصدون الإستيلاء على هذه الايالات عن طريق التوسع الاقليمي ((وانما كان يعني ما يعرف في العصر الحديث بمناطق النفوذ))(1) وانطلاقا من ذلك استمر النزاع بين الايالتين ، وتميزت العلاقات السياسية بينهما بعدم الاستقرار والتوتر وقد بلغ التوتر ذروته خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، والربع الاول من القرن التاسع عشر ، مما ادى في كثير من الاحيان الى وقوع معارك وحروب دامية بين الايالتين كما سيأتي .

ولعله من الاحسن التعرض الى اسباب تأزم العلاقات السياسية بين البلدين ، بالرغم من تبعيتهما لمقر الخلافة (اسطامبول) ، كما انهما كانتا في حرب دائمة مع العدو الخارجي (الصليبية المسيحية) .

ومن بين الاسباب الخارجية التي أدت الى وقوع هذه المنازعات والحروب بين الايالتين ما يرجع الى(2):

---

(1) السيد مسعود ، المجتمع الجزائري في العهد العثماني ، رسالة جامعية لم تنشر ، ص : 76 .

(2) حمودة بن عبد العزيز ، المصدر السابق ، مقدمة المحقق ، ص : 8 .

ضعف الدولة العثمانية بوجه عام في اواخر القرن السابع عشر لاسباب داخلية وخارجية*. كان لهذا الضعف اثره على الولايات التابعة لها، فاستقلت البعيدة منها بحكامها وغزا بعضهم بعضا طلبا للتوسع وبسط النفوذ حيث لم يعودوا يخضعون للسلطة المركزية. كما عمل الاوربيون كل ما في وسعهم لتحريض التوميسات الاوربية في البلقان الخاضعة للسلطة على الثورة ضد حكمها ومحاربتها بهدف اضعاف قوتها برا وبحرا، حتى يتمكنوا من الاستيلاء على الولايات العربية فيما بعد، وهذا ما اكدته الاحداث التاريخية في فترة لاحقة.

اما الاسباب الداخلية فيبدو انها تتمثل في سياسة حكام الجزائر — خلال العهد العثماني — تجاه تونس التي اعتبروها منطقة نفوذ استيراتيجية بالدرجة الاولى**، ومصدرا اقتصاديا بالدرجة الثانية. والا بماذا نفسر تركيزهم على تونس دون غيرها ؟ ولماذا لم يوجهوا انظارهم صوب المغرب الاقصى مع انهم تمكنوا من الوصول في وقت ما الى فاس(1).

---

* الاسباب الداخلية : تتمثل في ضعف السلاطين وانغماسهم في الترف واللهو، وتمرد الجيش الانكشاري، وانحطاط مستواه الخلقي والعسكري، وتدخله في الشؤون السياسية، وفساد الادارة في المركز وفي الولايات.
اما الخارجية : فتتمثل في بروز قوة روسيا واتحادها مع النمسا، وبولونيا، والبابوية، وفرسان مالطة، وانهزام الدولة العثمانية، وتوقيعها لمعاهدة كارلوفيتس سنة 1692، ومعاهدة استامبول في السنة الموالية وغيرها من المعاهدات المخزية مع اعدائها اثر كل هزيمة امام جيوشهم المنتصرة. (ارجع الى كوران المرجع السابق، ص : 15.)

(1) محمد بن عبد القادر الجزائري، المصدر السابق، ص : 76.

**. كان حكام تونس يدفعون ضريبة سنوية الى حكام الجزائر، بمقتضى معاهدة 1756. كما كان حكام الجزائر يبعثون مواشيهم لتباع في اسواق تونس، ولهم الاسبقية في ذلك على التونسيين وتباع بأسعار متفق عليها مسبقا، الى ان رفض حمودة باشا ذلك، انظر الاتحاف، ج 3، ص : 55 — 56.

لقد كان حكام الجزائر يهدفون من سياستهم تلك الى ضمان سايرة الحكام التونسيين للزعامة الجزائرية ضمن الاطار العام للحكم العثماني في شمالي افريقيا (1) اما حكام تونس فقد تأرجح موقفهم بين الولاء غير المباشر لحكام الجزائر حينا وتمردهم عليهم حينا آخر، وذلك كل ما تولى في تونس حاكم قوي، كما حدث في عهد حمودة باشا (1782 — 1814) الذي كان له دور كبير في تأزم العلاقات السياسية بين البلدين واشعال نار الحرب ابتداء من مطلع القرن التاسع عشر اذ عمل كل ما في وسعه لاعداد العدة لها، يهدف رد الاعتداءات والتحرشات التي توجه ضد حكام تونس من طرف حكام الجزائر.

وهذا الموقف كان يلجأ اليه كوسيلة تعامل بين النظامين كل ما حكم تونس باي قوي، اذ اننا لا نجده يكتفي برد الهجمات والتحرشات بل يلجأ الى غزو الجزائر (بايلك الشرق خاصة) كما وقع في عهد حمودة باشا*.

صحيح ان حكام الجزائر كانوا يغتنمون فرصة التطاحن على كراسي الحكم بين الامراء التونسيين، وكثيرا ما تدخلوا لتصيب باي موال لهم، وتابع لشروطهم، وكثيرا ما وقعت الاصطدامات بين البلدين نتيجة لهذا التدخل، وخاصة تلك التي حدثت في القرن الثامن عشر اذ ان مؤسس الاسرة الحسينية نفسه وصل الى الحكم نتيجة لتنظيمه المقاومة التونسية ضد التدخل الجزائري (2).

---

(1) وليم سبنسر، المرجع السابق، ص: 136.

* وقعت حروب عديدة بين تونس والجزائر في الفترة العثمانية السابقة للفترة التي ندرسها ومن اهمها ما حدث في السنوات: 1628، 1676، 1677، 1678، 1684، 1685، 1695، 1699، 1700، 1701، 1704، 1705، 1706، 1743، 1752، 1755، 1756، وقد اورد ابن ابي الضياف وقائع هذه الحروب في كتابه ((اتحاف اهل الزمان)) المصدر السابق، ج 2.

وأحسن مصدر تناول حالة العلاقات بين البلدين من 1705 — 1771 . هو:

Mohammed seghir ben Youcef Chronique Tunisienne , Traduit par Victor serres et Mohammed lasram, 2eme edi- Bouslama, Tunis.

1978، الكتاب أصلا مكتوب باللغة العربية، تحت عنوان ((المشرع الملكي في سلطنة أولاد حسين بن علي تركي)) لمؤلفه محمد بن محمد الصغير بن يوسف الباجي، ألفه (حوالي 1764 — 1769).

(2) وليم سبنسر، المرجع السابق، ص: 137.

ولذلك فانا لا نفاجأ بالمواقف التي يتخذها بعض البايات الحسينيين تجاه سياسة حكام الجزائر .

استمرت الصراعات والانتسامات الداخلية في تونس مما فتح المجال لتدخل دايات الجزائر لمؤازرة حاكم على آخر ، وكانت آخر واقعة من هذا النوع تلك التي وقعت سنة 1756[1] ، عندما تدخل داى الجزائر بالقوة وتمكن من تنصيب علي باشا مما ترتب عنه أمران[2] .

أولا على مدى خمسين سنة* وجب على باي تونس الاعتراف بسيادة داى الجزائر ((فكان الباي ينفذ اوامره ويدفع له ضريبة متفقة[3])).

وثانيا احدثت هذه الحملات الموجهة من قبل حكام الجزائر نوعا من الوعي ((التونسي)) المعادى للجزائر وحكامها حسب رأي محمد الهادى الشريف .

ولكن تنافس هذه الخلفية التاريخية التي تحكمت في مسار العلاقات السياسية بين البلدين — أو على الاقل بين النظامين — فانه يجب ان نلاحظ

---

(1) وقعت معاهدة بين داي الجزائر وعلي باي بعد تنصيبه تنص على الشروط الاتية :—

1 — ألا يسلح حصن الكاف الذى هو عبارة عن مرصد ، حصين يقع في الحدود الفاصلة بين الايالتين .

2 — ان العلم التونسي عندما يرفع لا ينبغي ان يكون الا في وسط الصوارى .

3 — عندما يصل احد مراكب الجزائر الى ميناء تونس فان قائد المركب هو الذى يتولى قيادة الميناء طوال المدة التي يقيمها هناك .

4 — يحظى كل من وكيل الجزائر او المكلف بشؤونها ، ووكيل باي قسنطينة بالاحترام كسفراء البلاطات الاوربية .

5 — يتعهد حاكم تونس بارسال ضريبة سنوية ((حمولة من الزيت ، وعددا كبيرا آخر من الهدايا التي تصنعها او تستورد ها كالاقمشة وزيت الزيتون ، واستمر هذا الالتزام الى غاية مطلع القرن التاسع عشر .

حمدان خوجة ، المصدر السابق ، ص : 163 .

اما المؤرخ التونسي احمد بن ابي الضياف فلم يورد هذه المعاهدة ، واكتفى بذكر الاشارة التي تتمثل في ((أداء سنوى على تولي الختم باعانة جيش الجزائر)) وذكر ثقل حمولة الزيت التي كان يرسلها بايات تونس الى الجزائر ، واعتبر ذلك نذرا دينيا وعملا صالحا منهم غير دال على خضوع تونس للجزائر . الاتحاف ، ج 3 ، ص : 30 — 32 .

(2) محمد الهادى الشريف ، المرجع السابق ، ص : 36 .

(3) نفس المرجع ، نفس الصفحة .

* — أي من سنة 1756 الى سنة 1806 .

أولا : لعل الغرض من فرض حكام الجزائر على الحكام التونسيين لهذه الاشارات والشروط التي تجعل من تونس دولة تابعة ، كان القصد منه ابعاد فكرة الحدود الحفصية* من أذهان هؤلاء عن الناحية الشرقية للايالة ، وعدم السماح لهم بالتفكير في محاولة التوغل والاستيلاء على الاراضي الجزائرية .

ثانيا : ان حكام الجزائر ـ طوال العهد العثماني ـ لم يعملوا على المساس بشخصية الشعب التونسي أو اعاقته عن التطور ، وانما كان الصراع مقتصرا على قمة الهرم السياسي في كلا البلدين ، والا بماذا نفسر وجود الجزائريين ـ طلبة واساتذة وتجارا ـ في تونس والعكس . ولم تتحدث الوثائق التاريخية(1) عن وقوع مسح التحام الشعبين وتآزرهما . وبماذا نفسر غضب الشعب التونسي أو الجزائري عند وقوع أي اعتداء على احدهما من طرف العدو المشترك ((الصليبية المسيحية)).

ولعل احسن مثال على ذلك ما اورده ((DOVOIZ)) في رسالته الى حكومته اذ قال :((... ان احداث الجزائر** خلقت شعورا حيا في ايالة تونس، لقد ذهلت الايالة من انتصار قوة مسيحية على امير مسلم ولو انه عدوها))(2).

(*) كانت الحدود الحفصية تمتد لتشمل الشرق الجزائر كله حتى مدينة بجاية .

(1) يذكر ابن ابي الضياف ، ج 3 ، ص : 57 ، ان حمودة باشا بعد ان اعلن تمرده واستعداده لمحاربة الجزائر أمر اهل الجزائر بالرجوع الى وطنهم . وكذلك ابن المبارك ، المصدر السابق ، ص : 51 .

لكن هذه العملية كانت وليدة ظروف معينة ، ثم زالت بزوالها ، واستمرت العلاقات بين البلدين على المستوى الشعبي ، ولم تتأثر بالازمات السياسية والعسكرية بين النظامين . ولعل اكبر دليل على ذلك هو تضاعف التبادل الاقتصادي (التجارة) بين تونس والجزائر في فترة حمودة باشا نفسه ، انظر رشاد الامام ، المرجع السابق ، ص : 300 .

** . يقصد بهذه الاحداث حملة اكسموث الشهيرة التي قنبلت مدينة الجزائر سنة 1816 .

(2) رسالة من DOVOIZ الى ROUCHILIO روشيليو ، تونس 31 ديسمبر 1816 ، Eugene Plantet, OPCIT , P : 553

ومما يبين لنا ان نتائج هذه الحملة قد اثرت في الاوساط التونسية حتى الحاكمة منها — رغم العداء التقليدي بين النظامين ، هل ممكن ذلك انهم ادركوا الخطر المحدق بالجميع ؟ يجوز لنا افتراض ذلك ، خاصة اذا علمنا ان مؤتمر فيينا كان هدف المجتمعين فيه هو القضاء على حركة الجهاد البحرية لدول شمال افريقيا والذين وصفوا هذه الحركة بالقرصنة ولذلك فبالرغم من العداء الشديد والحروب المستمرة بين البلدين ثان أواصر التقارب والمصير المشترك ، والعقيدة الواحدة ، كلها روابط ربطت بين البلدين من قديم التاريخ . وتوضيح هذه الخلفية كان لا بد منها حتى نستطيع ان نتفهم الاطار الذى كانت تتمحور فيه هذه العلاقات ، وحتى لا نصدر احكاما قد تسيء الى ماضي البلدين .

صحيح ان جيوش البلدين والشعبين عانوا الكثير من هذه الحروب لكن ذلك تم دون اراداتهم خاصة الطبقات الشعبية البسيطة التي تحملت عبء هذه النازعات والحروب ، أما الفئات الموالية للنظام في تونس ، كالاعيان ، والقياد وفرسان قبائل المخزن (مزارتية) ورؤساء القبائل فانهم وقفوا الى جانب الباي حمودة اثر اعلانه الحرب على الجزائر .

أما موقف هذه الفئات في الجزائر ، فيبدو انهم كانوا دائما معارضين لتلك السياسة وهذا الموقف يتجلى اكثر لدى احمد الشريف الزهار نقيب الاشراف ، وحمدان خوجة ، ويبدو ان وقوف فئة الاعيان والوجهاء بجانب البايات في تونس يرجع الى اعتقادهم بأن دفاعهم عن نظام الحكم دفاع عن مصالحهم المرتبطة به ، بحكم ان هذه الفئات كانت تشترك مع الحكام في المصالح أولا ، ولكون نظام الحكم في تونس ((تتونس)) بمرور الزمن .

ولعل هذا التكاتف ايضا من الاسباب التي شجعت حكام تونس على اشهار تمردهم على حكام الجزائر ، واعلانهم الحرب عليهم .

تـــأزم العلاقـــات واندلاع الحـرب

بمطلع القرن التاسع عشر بدأت تتدهور العلاقات بشكل اكثر وضوحا بين الايالتين ويبدو ان ذلك يرجع الى عدة عوامل أهمهـا :
بالنسبة للجزائر يلاحظ تدهور الاوضاع الداخلية سياسيا واجتماعيا وحتي اقتصاديا ، فهناك المجاعات، والصراعات الداخلية بين الحكام ، اضف الى ذلك اندلاع الثورات المحلية في الشرق والغرب ، وتمرد القبائل المختلفة مما خلق مصاعب جمة للنظام الحاكم (1) كما سبقت الاشارة الى ذلك في الفصل الاول ، واذا كانت حالة الاستقرار السياسي والتدهور الاجتماعي من مميزات الوضع العام في الجزائر خلال تلك الفترة ، فاننا نجد اوضاع تونس في الفترة ذاتها كانت تمر بفترة ازدهار نسبي ((على الاقل)) فهي اكثر استقرارا من الجزائر سياسيا واجتماعيا وحتى اقتصاديا في فترة ((حمودة باشا)) الذى استطاع ان يوفر هذا الاستقرار لتونس حتى يستطيع ان يقف في وجه حكام الجزائر أولا ، ويظهر تونس بالمظهر القوى في علاقاته تجاه الدول الاخرى ، التي تربطه بها علاقات مختلفة اقتصادية وسياسية .

وقد لجأ ((حمودة باشا)) الى عقد عدة اتفاقيات مختلفة مع الدول الاوربية(2)، ووطد علاقاته مع حكام المغرب الاقصى خاصة(3) حتى يتفرغ لاستعداداته لمجابهة الجزائر .
لقد استمر باي تونس في دفع فروض الطاعة والولاء لحكام الجزائر الى غاية مطلع القرن التاسع عشر .

---

(1) عن هذه الثورات والتمردات التي كان بايلك الشرق المجاور لتونس مسرحا لها ، انظر : ERNEST MERCIER , OPCIT, P:304, 308- 318.
وكذلك : VAYSSETTES, روكساى P:473.

(2) رشاد الامام ، المرجع السابق ، ص: 408 ــ 413 ، عقد عدة معاهدات مع فرنسا وكذلك النمسا واسبانيا ، والبندقية وكرسيكة ، ومع الولايات المتحدة ، وصقلية، والبرتغال ونابلي ، والدانمارك وابريطانيا .

(3) الاتحاف ، ج 3 ، ص: 28 ، 54 . الناصرى ، ج 3 ، المصدر السابق ، ص: 118 .

ولعل ما يؤكد لنا استمرار تسديد هذه الاتاوات والالتزام بشروط معاهدة سنة 1736 بين البلدين ، قول ((D'esparron)) :
((سفينة فرنسية استؤجرت من طرف الحكومة التونسية لتقبل العطايا التي كان يمنحها الباي سنويا الى داي الجزائر))(1).

وفي سنة 1798 توفي داي الجزائر الدأعداء باي تونس، وتولى الداي مصطفى الحكم ((1798 — 1805)) ، ولم تمض على تولية الداي الجديد ؛ مدة طويلة حتى عقد كما يذكر DOVOIZ علاقات حسنة مع كل من باي تونس وباشا طرابلس(2).

لكن يبدو ان حمودة باشا استغل هذه الصداقة وتمكن من التخلص والقضاء على الامير حسن بن اسماعيل بن يونس* في 20 سبتمبر 1799 . وبذلك تمكن من القضاء على آخر منافس له على الحكم ، بعد ان نجح في استعمال الحيلة لاستقدامه الى تونس ((باعانة ومواطأة (كذا) من الحاج محمد لبرادعي وكيل** الجزائر بتونس))(3).

---

(1) في رسالة الى حكومته ، تونس 4 جوان 1784 .Eugene Plantet, OPCIT, P:139

(2) IBID , P : 369

*. فر هذا الامير الى الجزائر بصحبة والده اسماعيل بن يونس بعد ان طرده علي باي والد حمودة من جبل وسلات ، واثناء اقامته بها توفي اسماعيل . وبعد ان تولى حمودة باشا الحكم خشي من قيام حسن بن اسماعيل ضده بمؤازرة ومساعدة حكام الجزائر ، فاستعمل الحيلة لجلبه الى تونس، ثم قتله ، انظر تفصيل ذلك : في الاتحاف ، ج 3، المصدر السابق ، ص : 47 ، 48 .

**. بعد هذه الحادثة اصدر اليه الداي مصطفى اميرا بالدخول الى الجزائر لكنه امتنع خوفا من عقابه خاصة بعد ان ثبت تورطه في هذه القضية ، وطلب مصطفى داى من حمودة باشا ارساله اليه لكن باي تونس رفض ذلك بحجة ان الحاج محمد لبرادعي لجأ الى مقام الولي اى سعيد الباجي ، ولعلها المرة الاولى التي يعلن فيها حمودة باشا عصيانه لاوامر داي الجزائر ويقول ابن ابي الضياف ان حمودة باشا خشي من هجوم جزائرى على تونس فأمر باغتيال لبرادعي ، ص : 48 . لكن يبدو ان اعدام حمودة باشا لوكيل الجزائر كان خوفا من ان يصل الى داي الجزائر ويكشف له عن خطط حمودة واستعداداته تجاه الجزائر خاصة اذا علمنا ان البرادعي ، وحمودة كانت بينهما علاقات متينة ، رشاد الامام ، المرجع السابق ، ص : 334 .

(3) الاتحاف ، ج 3 ، المصدر السابق ، ص : 47 ، 51 .

Scanned by CamScanner

ولكن يبدو ان باي تونس استطاع ان يقنع باي قسنطينة ويستميله الى جانبه* وازدادت الملاقات الودية توثقا بينهما الى علم داي الجزائر بذلك فامر باعدام باي قسنطينة، الذى فر الى تونس قبل تنفيذ حكم الاعدام فيه[1]. وهو ما أثار غضب الداي مصطفى في الجزائر[2].

وكان رد فعل حكام الجزائر يتمثل في ارسال مزيد من البقر والمواشي لتباع في تونس بأسعار عينها الداي مسبقا، بحيث تباع قبل الانعام التونسية[3].

ولكن باي تونس رفض هذا الامر بعد استشارة حاشيته، وقرر تحدي داي الجزائر باعادة الباي مصطفى انقليز الى منصبه بقسنطينة بقوة السلاح، ورفض تسليمه للداي مصطفى[4].

اما المواشي التي كان قد ارسلها داي الجزائر لتباع في تونس كاختبار لنوايا الباي التونسي فقد كلف هذا الاخير – حسب ما ذكر ابن ابي الضياف – شاهدي عدل لحضور بيع تلك المواشي مع عدم حرمان التونسيين من بيع مواشيهم في نفس اليوم، وكتب الى داي الجزائر يطلب منه ان كان يرغب في تسويق مواشيه مرة اخرى بتونس فما عليه الا ان يوجه خطاب الى وكيله بها[5]. وان لا يكون له اي امتياز على التونسيين في هذا المجال.

(*) لا شك ان حمودة باشا كان يهدف الى استمالة باي قسنطينة الى صفه حتى يستطيع ان يكمل كافة استعداداته اولا، وليأمن جانبه ثانيا.

(1) يذكر Mercier ان سبب نجاة الباي مصطفى انجليز من الموت يرجع الى وساطة اصدقائه في مدينة قسنطينة.

Histoire de Constantine , p :308

(2) الاتحاف، ج 3، ص: 55، 56، ويقول ابن المبارك ان الداي هو الذى نفى مصطفى انقليز وابنه الى تونس، المصدر السابق، ص: 50.

(3) الاتحاف، نفس المصدر، ص: 56. وليم سبنسر، المرجع السابق، ص: 133.

(4) Mercier ; opcit , p:308

(5) الاتحاف، ج 3، ص: 57.

واثناء حملة نابليون على مصر (1798) ارسل الباب العالي رسله الى الولايات الثلاث بشمال افريقيا يأمرهم بقطع العلاقات مع فرنسا ، وقد التزمت ايالتا طرابلس والجزائر بذلك ، اما باي تونس فلم يرضخ الا بعد الضغط عليه من طرف داي الجزائر(1).

واورد حمدان بن عثمان خوجة انه كان عائدا من القسطنطينية سنة 1801 صحبة خاله وتوقفا بتونس، واقاما فيها اسبوعا وحظيا باستقبال حمودة باشا لهما ، واشتكى لهما من تصرفات وتجاوزات وكلاء الجزائر وقسنطينة، ويقول حمدان :((وعلى الرغم من ان خالي كان في خدمة الدولة فانه وجد ملاحظاته عادلة ، وأكد له بأن تلك التصرفات تتنافى مع شعور الجزائريين** الذين يحبون الامن والعدالة))(2).

ويبدو ان حمودة باشا بدأ ينتقد هذه التجاوزات عندما احس بقدرته وقوته بالوقوف في وجه حكام الجزائر ، بل بدأ ((يتحلل على اهل الجزائر ، واخذ في ازالة ما اعتادوه من التعدى))(3) على حد تعبير ابن ابي الضياف . لكن هناك عوامل داخلية حصلت في الجزائر هي التي اعطت ابعادا اخرى في مجال العلاقات السياسية بين البلدين والتي استغلها حمودة باشا ، واعلن صراحة معاداته لحكام الجزائر وتحلله من كافة الالتزامات تجاههم سنة 1802 .

ورغم ذلك فقد استمر الوضع هادئا بين البلدين لمدة تزيد عن السنة والنصف الى ان تعكرت العلاقات من جديد وبصفة خطيرة بعد ان اعلن باى قسنطينة*** ((وادعى فجأة ولاية حقه في ملكية منطقة بلاد الجريد التونسية))(4)

---

*. لقد كانت الجزائر مرتبطة بمعاهدة صداقة مع فرنسا ، واثر تلك الحملة اجبرت من طرف الباب العالي على اعلان الحرب على فرنسا وقطع علاقاتها معها ، واستمر ذلك الى سنة 1801 ، تاريخ ابرام معاهدة السلم بين فرنسا والجزائر ، ارجموند كوران ، المرجع السابق ، ص : 19 .

(1) رشاد الامام ، المرجع السابق ، ص : 362 .

**. لعل هذا الموقف يبين لنا موقف الاعيان والاشراف في الجزائر من تلك الصراعات التي كانت تقع بين لحكام الجزائر وبين جيرانهم حكام تونس .

(2) المصدر السابق ، ص : 165 ـ 166 .

(3) الاتحاف ، ج 3 ، ص : 55 .

***. هو الباي مصطفى انقليز ، الذى اصبح فيما بعد تحت حماية حمودة باشا .

(4) يذكر رشاد الامام ، المرجع السابق ، ص: 393 ، ان باي قسنطينة بعث رسالة رسمية في هذا الموضوع الى حمودة باشا ، وقد اعتمد رشاد الامام على رسالة القنصل البريطاني

ونحن لا نستبعد ذلك لأن نفس الاسلوب كان يلتجيء اليه حكام الجزائر في تشجيع أمير من امراء الاسرة المالكة في تونس، ومؤازرته وتنصيبه بايا شريطة ان يحافظ على الشروط المتفق عليها .

وتأزمت العلاقات بين البلدين واصبحت الحرب وشيكة الوقوع، رغم محاولة باي قسنطينة حسين بن صالح باي* استبعاد الحل العسكري، وذلك عن طريق الوصول الى حل سلمي بين البلدين(1). ولذلك فقد ارسل سريا مفاوضين عنه برئاسة الحاج عمار بن زقوطة أملا في ان يتوصل الطرفان الى حل مشرف يرضي البلدين، الا ان محاولته تلك لم تثمر، لان الجيش التونسي اذ ذاك كان في طريقه الى الحدود بين البلدين تحت قيادة سليمان كاهية** .

ولعل ذلك ما يؤكد ان حمودة باشا كان مصرا على غزو الجزائر مهما كانت نتائج ذلك الغزو . وبعد خوض معارك متعددة بين الجانبين — كما يأتي — الا انهما تمكنا من الوصول الى عقد اتفاق سنة 1808(2)، وكلف الداي احمد (1805 — 1808) محمد بن العنابي*** بمكاتبة باي تونس وكتب له رسالة في شأن الصلح، ووجهها له، ولعلها كانت الاساس في الاتفاق الذى وقع بين البلدين في عهد الداي احمد، ولو تمكنا من الاطلاع على هذه الوثيقة**** فانها دون شك كانت ستبين لنا الكثير مما اتفق عليه رغم ان هذا الاتفاق لم يعمر طويلا كما سيأتي .

---

* . كانت نهايته الاعدام نتيجة لاخفاقه في المعركة التي وقعت بين الجيش الجزائرى والتونسي في وادى سرات بالحدود الجزائرية التونسية كما سيأتي تفصيل ذلك .

(1) محمد بن عبد القادر، المصدر السابق، ص: 120 .

** . اصله من جورجيا، اشتغل تحت امرة علي بن حسين باي وتحت تصرف ولده حمودة، ثم رقي الى منصب كاهية العسكر، وقاد الحملة التونسية ضد قسنطينة، ثم اصبح كاهية دار الباشا، توفي سنة 1807 .انظر : (هامش 10) Les Cahiers de Tunisie, tome,XIX.N°73-74, Iere et 2eme trimestre 197I , P: 93.

(2) العنترى، فريدة منسية، المصدر السابق، ص: 84 . نور الدين عبد القادر، المرجع السابق، ص: 118 .

*** . افرد له الاستاذ ابو القاسم سعد الله دراسة خاصة تحت عنوان : ((المفتي الجزائرى ابن العنابي رائد التجديد الاسلامي)) الشركة الوطنية للنشر والتوزيع . الجزائر .

**** . وعدنا الزهار بادراجها ضمن مذكراته اثناء صياغته لها، لكن لم يقدر لهذه الصياغة ان تتم، ولا ادراج هذه الرسالة، التي يقول احمد توفيق المدني بشأنها ((لم [illegible])) المصدر السابق، ص: 97 .

ولعل باي تونس استوثق من استعداداته العسكرية لمحاربة الجزائر، ولذلك نراه — ولاول مرة منذ توليه الحكم — يغضب على مبعوث الجزائر الذي حل بتونس، ويطرد الوكيل المعتمد[1]. ومهما يكن من امر هذه الاستعدادات العسكرية من قبل حكام تونس فان الاوضاع الداخلية السيئة التي كانت تمر بها الجزائر هي التي شجعته على اعلان تمرده وتحلله من المعاهدات المخزية التي اثقلت كاهل بلاده منذ سنوات عديدة والتخلص من سيطرة حكام الجزائر[2].

بدأت تدخلات باي تونس تتكرر في الجزائر فبعد ان منح حق اللجوء السياسي الى باي قسنطينة — كما سبق — نجده يستقبل محمد بن الاحرش* بعد عودته من مصر ((وكانت عند "حمودة" دسيسة في خاطره على ملوك الجزائر، ولم يظهر لهم ذلك خوفا منهم))[3] ولذلك فقد شجعه حمودة باشا على القيام بالثورة ضد الحكام العثمانيين ولعله اقترح عليه مساعداته[4].

---

(1) رشاد الامام، المرجع السابق، ص: 393.

(2) حمدان خوجة، المصدر السابق، ص: 165.

* هو محمد بن عبد الله الشريف الملقب بابن الاحرش، مغربي الاصل، مالكي المذهب، درقاوي الطريقة ينتسب الى قبيلة درعة المغربية (أي المغرب الاقصى) أنظر: محمد بن يوسف الزياني، دليل الحيران وأنيس السهران في اخبار مدينة وهران، تقديم وتحقيق المهدي البوعبدلي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، 1978، ص: 207.

قاد ثورة بالشمال القسنطيني هزت اركان الحكم، وتمكن وجيشه من اغتيال باي بايلك الشرق (عصمان) انظر تفاصيلها في: 313:

(3) الزهار، المصدر السابق، ص: 35.

انظر أيضا: محمد بن عبد القادر، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والامير عبد القادر، شرح وتعليق ممدوح حقي، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، ط. 2، 1964. ص: 117.

(4) يذكر VAYSSETTES ان سفينة انجليزية هي التي حملت ابن الاحرش من تونس الى عنابة، روكساي، ص: 474. هامش 1.

رد فعل دايات الجزائر وصلح 1821

تميزت فترة تولي الداي الحاج علي الحكم (1809 — 1815) بالتوتر المستمر في العلاقات السياسية بين البلدين ، مما أدى الى تجهيز الحملات العسكرية برا وبحرا خاصة من طرف الجيش الجزائري ، وذلك بعد أن هاجم الجيش التونسي قسنطينة وحاصرها *، ورد الجيش الجزائري بالمثل . وعندما تولي الداي الحاج علي الذى امتاز عهده ببعث الحركة البحرية ومضاعفة نشاطها حتي يعيد لها هيبتها مما ارغم مختلف الدول على تسديد التزاماتها تجاه الجزائر ، اقول : عندما جرى ذلك الانبعاث القوى ((انزعجت منه ايالة تونس المجاورة ، واستاءت له الدولة العثمانية ، واستنكرته الدولة الاوربية في مؤتمر فيينا 1315)) (1).

لقد اتسمت علاقات الجزائر الخارجية — في عهد الداي الحاج علي — بالصرامة والحسم . ويبدو انه قرر ان يعيد الامور الى مجاريها السابقة من مسايرة حكام تونس لحكام الجزائر (2) ، ولذلك فقد خصص جزءا هاما من انشغالاته الى جيرانه ، حيث تميزت مرحلة حكمه بتجهيز الجيوش والحملات البرية والبحرية ضد تونس ، رغم اقتراح باي تونس ** مشروعا للسلام بين الايالتين الا ان داي الجزائر رفض ذلك (3).

(*) سأوضح هذه الاحداث بالتفصيل اثناء الحديث عن المعارك والحروب التي وقعت بين البلدين خلال تلك الفترة .

(1) عبد الحميد زوزو ، المرجع السابق ، ص : 25 — 26 .

(2) في سنة 1811 ألغى الاتفاقية التي ابرمها الداي احمد مع باي تونس سنة 1303 واشتدت الازمة بين البلدين ، وهاجم اسطولا البلدين احدهما الاخر في البحر المتوسط ، محمد بن عبد الكريم ، المرجع السابق ، ص : 36 .

** . هو عثمان باي الذى تولى الحكم بعد وفاة أخيه حمودة ولم يطل كثيرا في الحكم وتولى بعد ابن عمه محمود .

(3) AE B 3,304 .

موقف الباب العالي من هذا النزاع :

موقف الباب العالي وتهديده له

لقد ادى هذا الموقف من طرف داي الجزائر الى تدخل الباب العالي
براسطة مبعوثه محمود أغا سنة 1814 ، غير ان الداي الحاج علي رفض هذا التدخل
وامر باطلاق النار على المبعوث العثماني (1) لكنه اضطر الى اجراء المفاوضات السياسية،
خاصة بعد التهديد الذي وجهه له السلطان محمود القائل في حالة عدم امتثالك لاوامر
السلطان فان ذلك يعتبر تمردا عليه ، وسوف يعامل الجزائريون على هذا الاساس. (2)

وعلى اثر هذا التهديد قرر الحاج علي عقد الصلح بين البلدين على اساس التزام حكام
تونس بعدة شروط وارسل شخصا من الديوان الى تونس ليقدم الى بايها الشروط
التي يتم على اساسها الصلح ، وتتمثل خاصة في :—

أولا : استمرار دفع الالتزامات القديمة .

ثانيا : تهديم حصون الكاف ، وتخفيض العلم التونسي الى نصف الصارى .

لكن باي تونس رفض هذه الشروط من جديد مما ترك الوضع بين البلديين
في حالة حرب دائمة نظرا لفشل المفاوضات السياسية وتعنت كل طرف
برأيه الى ان قتل الداي الحاج علي (1815) .

بعد وفاة الحاج علي تولى الحكم بعده عمر داي (1815 — 1817)
وطلب اليه من طرف الباب العالي السعي من اجل عقد معاهدة صلح بين
البلدين ، ولذلك فقد ارسل الداي عمر رسالة الى السلطان محمود الثاني
بتاريخ اول يونيو (جوان) سنة 1826 (3) اشعره فيها بأنه ارسل رسالة
الى ((التونسيين)) طالبا منهم الالتزام بارسال الهدايا كما هو مألوف —
ولكن طلبه رفض من قبل الباي التونسي (محمود) ، لذلك نجد عمر داي في
رسالته السابقة الى السلطان يذكر بأنه رغم الاوامر التي صدرت من الباب
العالي الى سلفه ((الداي الحاج علي)) في هذا الشأن والتي تطالبه
بوضع حد لهذه الحروب فانه لم يلتزم بذلك .

---

(1) عبد الجليل التميمي ، المرجع السابق ، ص: 286 .

(2) VAYSSATTES روكاي ، ص : 513 .

(3) عبد الجليل التميمي ، بحوث ووثائق ، المرجع السابق ، ص : 251 — 252 .

غير اننا نجد ان الداي عمر نفسه قد وقف موقف سلفه او اكثر تشددا تجاه جيرانه، لقد كان يرغب في التوصل الى عقد الصلح مع باي تونس ولكن مقابل شروط معينة اهمها[1]:

أولا: الاعتراف علنا من قبل باي تونس بتبعيته للجزائر.

ثانيا: دفع كل الاتاوات المتفق عليها من قبل.

ثالثا: تهديم حصون الكاف ومعاقلها.

الا ان باي تونس لم يجب على هذه الشروط، وهناك من يعتقد ان محمود باي تونس كان يرغب في انهاء هذا الخلاف المزمن بين البلدين، ولذلك فبعد توليه الحكم مباشرة ارسل ممثلا عنه الى داي الجزائر بشأن التفاوض من اجل احلال السلم بين البلدين واستعداده لتسديد غرامة مالية مقابل عقد الصلح دون تطبيقه للشروط الاخرى[2].

لكن الداي عمر اصر على مطالب الجزائر المتمثلة في اعتراف حكام تونس بخضوع ايالتهم للجزائر وهدم حصون الكاف، وتسديد كامل الالتزامات المالية السابقة، وخفض العلم التونسي[3]. وقد رفض باي تونس هذه الشروط خاصة الاخيرة منها[4].

ويبدو ان باي تونس اتخذ هذا الموقف نظرا لما كان يعلمه من ان الجيش الجزائري الموجود بالمقاطعة الشرقية من الجزائر كان ضعيفا، ولا يستطيع خوض اية معركة بقيادة باي الاقليم " محمد تشاكر " الذى كرس جهده لاعادة الامن والاستقرار وقمع التمردات في البايلك الشرقي[5].

---

(1) الزهار، المصدر السابق، ص: 126 .

(2) روكاي، المرجع السابق، ص: 514 .

(3) Mouloud Gaid, Chronique des Beys de constantine, Office des publications universitaires, sans date, P:71.

(4) عبد الجليل التميمي، المرجع السابق، ص: 252 .

(5) MERCIER, OPCIT , p: 343 ,346

وهو هجوم حملة اكسموث عليها سنة 1816 وتحطيم اسطولها ، واملاء — بالاضافة الى سبب خارجي طرأ على الجزائر — فيما بعد — شروط قاسية على الداي ، وهو الامر الذي لم يفسح المجال الى الداي عمر بالتخطيط لمجابهة جيرانه حكام تونس(1).

ونظرا لتلك الظروف فان الطرفين لم يتمكنا من الوصول الى حل سياسي مما ترك الاوضاع على ما هي عليه الى أن توفي عمر داي وتولى بعده الحكم الداي علي خوجة ، الذى ركز في بداية ولايته كافة اهتماماته على الاوضاع الداخلية(2).

وبعد ان استتب له الامر قرر ان ينهي الخلافات القائمة بين البلدين منذ زمن بعيد فأرسل مفاوضين عنه الى باي تونس بهدف التفاوض في امر الصلح بينهما الا ان باي تونس رفض ذلك بل جهز حملة بحرية ضد الجزائر حطمتها عاصفة هوجاء قبل اقلاعها(3). تعكرت العلاقات بين البلدين من جديد ، مما تطلب مرة أخرى تدخل الباب العالي وطلب من حاكمي البلدين ارسال مندوبين عنهما الى اسطانبول للتفاوض وانهاء الخلاف(4)، واختير المبعوثان حسب ما اورد الزهار ((فذهب من تونس رجل من خيارهم*، وذهب من الجزائر رجل** من اقل الناس عقلا ورأيا))(5).

وحسب رواية الزهار فان المفاوض التونسي كان اقدر دبلوماسيا من المفاوض الجزائري، (6). اللهم يجوز ذلك ، لكن الذى نشك فيه تلك الاوصاف التي وصف بها ذلك الرجل الا انه كان جريئا وحسب ، ونقل الى مقر الخلافة ((بكل أمانة)) ما كان يذكر

---

(1) Mouloud Gaid , Opcit, P:72

(2) احدث تغييرات هامة في نظام الحكم ومقر الداي ، وابعد الجيش الانكشارى، واعتمد على العنصر الجزائرى انظر : Mercier , OPCIT,P:347

(3) الزهار ، المصدر السابق ، ص : 138 .

(4) نفس المصدر ، ص : 146 .

* . لم يذكر ابن ابي الضياف اسم المفاوض التونسي .

** . وكذلك فعل الزهار بالنسبة للمفاوض الجزائرى ، من حيث انه لم يذكر اسمه .

(5) نفس المصدر ، نفس الصفحة .

(6) نفس المصدر ، نفس الصفحة ، وصفه بأوصاف تدل على بلادته وغباته .

به حكام الجزائر تجاه ايالة تونس، ولعله يمكن ان نستنتج من هذه الرواية الروح والعمل الاستقلالي الذى كان يمارسه حكام الجزائر في تلك الفترة في مجال علاقاتهم الخارجية بعيدا عن أي تدخل من اسطامبول، فقد كان رد المفاوض الجزائر على الوزير ((ممثل السلطان)) بعد ان انهى المفاوض التونسي كلامه — رد الجزائرى مخاطبا الوزير ((هذه تونس كما أخذناها سابقا، فأصبح اهلها رعية لنا، وكنا نأخذ منهم الغرامة كل سنة، ثم انهم عصونا فصرنا نأخذهم ولا نزال نأخذهم، ونأخذ بلادهم، ان التوانسة رعية لنا مثلما الكريك* (كذا) رعية لكم، فنأخذ نحن من التوانسة كما تأخذون انتم من الكريك))(1).

ولم يقدر للداي علي خوجة ان يعمر طويلا ومات بالوباء(2). وخلفه حسين داي.

استمر النزاع بين البلدين الى غاية مارس 1821 وهو تاريخ عقد الصلح بين البلدين بتدخل من الباب العالي.

وقد تلقى التونسيون وكذلك الجزائريون خبر هذا الصلح بكل فرح وسرور اذ اعتبر بمثابة يوم العيد في تونس ((وسادت بشائره افواه المدافع في يومه صباحا ومساء))(3). وبفضل هذا الاتفاق زالت الشحناء القديمة بين الايالتين المتجاورتين، وسقطت جميع مطالب حكام الجزائر على حكام تونس(4).

(*) المقصود بها الاغريق (اليونانيون).

(1) نفس المصدر السابق، ص: 146.

(2) يذكر: Mercier, Opcit , p:352 ان تاريخ وفاته كان اول مارس 1819.

(3) الاتحاف ج 3، المصدر السابق، ص: 173.

(4) يرى ابن ابي الضياف، وحسن حسني عبد الوهاب، وسار على نهجهما صلاح العقاد ان اتفاقية الصلح سنة 1821 كانت اتفاقية حدود بين البلدين الا ان ذلك يبدو غير صحيح اذ ان اتفاقية الصلح بين البلدين حول الحدود هي تلك التي ابرمت سنة 1628 والتي تم فيها تعيين الحدود. اما الحروب التي اتت بعد ذلك فكان الغرض منها مسايرة حكام تونس لحكام الجزائر، واقتناص المال والغنائم، هذا لا يعني انه لم تقع منازعات حول الحدود منذ ذلك التاريخ، فكثيرا ماكانت تقع مشاكل بين قبائل البلدين بسبب عدم احترام الحدود من بعض القبائل التونسية مما ادى الى استمرار توتر العلاقات السياسية بين البلدين. انظر الملحق رقم (3).

ولعل ذلك يرجع

ويبدو ان حسين داي احترم مواثيق هذا الصلح (1). ولولا حاجته الى الظروف الداخلية والخارجية التي كانت تمر بها الجزائر لا ستغل قدوم رجل من تونس سنة 1822 (يدعي انه من نسل ملوك تونس، من اولاد يونس)(2)، اذ بعد اقامته مدة من الزمن طلب من حسين داي مساعدته " بحملة " عسكرية (لاخذ تونس)(3).

لم يلب الداي طلب ذلك المدعي، بل لجأ الى مراوغته وتسويفه واخيرا خيره بين الاقامة في الجزائر او قسنطينة، واختار الاخيرة.

ويمكن القول ان نفس الموقف اتخذه باي تونس من الثائر محمد بن احمد التيجاني*، ولم يقابله اثناء مروره بتونس اثناء تأدية فريضة الحج، وبعد رجوعه على نفس الطريق، طلب الداي حسين من باي تونس القاء القبض عليه وتسليمه له، الا ان هذا الاخير رفض هذا الطلب وأحسن على حياة التيجاني الى ان سافر الى زاويته بعين ماضي.

ولعل الرسالة التي بعثها باي قسنطينة محمد منماني** الى باي تونس بتاريخ جمادى الاولى 1240هـ/1824م يخبره فيها بتعيينه من قبل الداي حسين ((على بلاد قسنطينة وجميع عمالتها ونواحيها وجهاتها))(5) تبين لنا بوضوح استتباب الامن بين الايالتين خلال تلك الفترة القصيرة اذ ورد في الرسالة المشار اليها ما نصه ((لاننا وإياكم حال واحد))(6).

---

(1) عن التمردات والثورات التي حدثت خلال بداية العشرينات من القرن التاسع عشر في الشرق الجزائري خاصة، انظر: Mercier, opcit, P: 253 - 353، 364 - 66.

(2) الزهار، المصدر السابق، ص: 150.

(3) نفس المصدر، نفس الصفحة.

(4) *. هو محمد بن احمد بن سالم التيجاني، اصله من بني (توجين) امراء تاهرت، محمد بن عبد القادر، المصدر السابق، ص: 125. وهناك من يورد ان اهله من المغرب او من الصحراء قرب ميزاب. ويقال من قرية عين ماضي قرب الاغواط، انظر الزهار، المصدر السابق، ص: 153.

**. محمد منماني: ديسمبر 1824 - جويلية 1826.

(5) الوثيقة رقم 2. Archives Général tunisienne, dossier 384. الطبق رقم 2. ص: 107 cartons 223, armoire 25.

(6) نفس المصدر، ونفس الوثيقة.

وعلى الرغم من استتباب الامن والسلم بين الايالتين في المشريات من القرن التاسع عشر ، الا ان الشعور المعادي يبدو انه استمر قائما ، اثر وصل الرسالة التي بعث بها حسين داي الى باي تونس (1)، قدوم بعض السفن التونسية المحملة بالبارود والرصاص والاسلحة الحربية، وبيعت حمولتها تلك الى القبائل الجبلية بالشمال القسنطيني ، والتي كانت في حالة عصيان ، وعدم الانقياد لنظام الحكم ، بيين لنا استمرار سوء النية بين النظامين .

وفي بداية تولي احمد باي (جويلية 1826) على قسنطينة، اثيرت مشكلة الحدود بينه وبين باي تونس نتيجة لعدم احترام القبائل التونسية المجاورة للحد الفاصل بينهما وبين القبائل الجزائرية المتاخمة لها ، مما ادى الى وقوع مناوشات ومنازعات بين تلك القبائل (2).

وقد عثرت على رسالة بعث بها احمد باى الى باي تونس يخبره فيها بان قبيلة " ورغة " التونسية قد تعدت الحد الفاصل بينهما وبين وطن "الحنانشة " الامر الذى يؤدى الى وقوع المنازعات بين المتجاورين . وهو دليل على ان مشكلة الحدود رغم ما بذل من اجل تسويتها الا انها استمرت مصدرا للنزاع بين المتجاورين .

وقد ادى في كثير من الاحيان ، فرار رعايا جزائريين الى تونس من قسوة الحكام ، او تهربا من دفع الضرائب خاصة سكان الحدود — الى تدهور العلاقات السياسية بين الايالتين (3).

---

(1) الوثيقة رقم 10 A.G.T, Dossier 384, cartons 223.
ملحق رقم 1.

(2) الوثيقة رقم 6. A.G.T, dossier 384, cartons 223.
مؤرخة بتاريخ 24 رمضان 1224 هـ / 1826 م . ملحق رقم 3.

(3) نفس المصدر ، نفس الوثيقة .

موقف باي تونس من الاحتلال الفرنسي للجزائر

لقد تعرضت الجزائر لحصار بحري دام ثلاث سنوات (1827 — 1830)*، وقبل هجوم الاسطول الفرنسي على الجزائر بمدة قليلة قدم الى تونس ((طاهر باشا))** مبعوثا من طرف الباب العالي في سفينة حربية ، واراد النزول الى البر ليتوجه الى الجزائر ، الا ان الباي التونسي (حسين) ومن ورائه القنصل الفرنسي منعاه من النزول بتونس (1).

ويبدو انه لو تمكن المبعوث العثماني السابق من الرسو في تونس، ووصوله الى الجزائر عن طريق البر لترتب عن ذلك حل النزاع . لانه لو دخل الجزائر لكن الفرنسيين خافوا من دخول طاهر باشا الى الجزائر ، لكانت الجزائر وتمكن من اقناع الجزائريين بقبول الشروط الفرنسية ، المشكلة قد انحلت وانتهت ولا يبقى مبرر لا للحصار ولا للعمليات العسكرية التي لجأت اليها فرنسا لارغام الجزائر على قبول شروطها في الظاهر — (2).

ولعل ما يؤكد تورط باي تونس وموقفه المتحامل تجاه فرنسا في حربها مع الجزائر ، ان الحملة السيكولوجية التي مارستها فرنسا كمقدمة للحملة العسكرية بقصد خلق الهوة بين الشعب والقيادة ، وحتى لا تتكاثف الجهود وتقف في وجه الغزاة ، كانت موجهة من تونس (3).

---

* . كان اعلان الحصار يوم 15 جوان 1827 .

** . كلف من طرف السلطان لانهاء الخلاف بين الجزائر وفرنسا بالطرق السلمية ، ووصل الى ميناء تونس في 10 ماي 1830 . الا ان باي تونس ومن ورائه القنصل الفرنسي منعاه النزول ، ارجموند كوران، المرجع السابق ، ص : 37 . وعن مهمة طاهر باشا ، انظر نص الفرمان السلطاني ، مجلة التاريخ ، المركز الوطني للدراسات التاريخية ، النصف الاول من سنة 1982 ، الجزائر ، ص: 20 — 26 .

(1) احمد توفيق المدني ، من الوثائق العثمانية عن التاريخ الجزائري ، مجلة التاريخ نفس المرجع ، ص: 26 . نقلا عن سميح النبز .

(2) عبد الرحمن تشايجي ، المسألة التونسية والسياسة العثمانية 1881 — 1913 ، ترجمة عبد الجليل التميمي ، ط 1 ، تونس ، 1973 ، ص : 32 .

(3) حمدان خوجة ، المصدر السابق ، مقدمة المحقق ، ص : 7 — 9 .

بعد استيلاء فرنسا على الجزائر العاصمة، واستسلام الداي، بدأ الفرنسيون يخططون لضم كافة الاقاليم، ومن بينها اقليم الشرق الجزائري، وقد لجأ الجنرال كلوزيل* الى اصدار امر بعزل احمد باي، وابرام اتفاقية مع باي تونس (حسين بن محمود) على اساسها تصبح قسنطينة تابعة لتونس، ويتولى امارتها الامير مصطفى بن محمود اخو الباي التونسي، ولكن لم يقدر لهذه المعاهدة ان ترى النور (1).

ولعلها كانت خطة استعملها الفرنسيون لاستفزاز باي المقاطعة، واختبار نوايا بايات تونس، خاصة وانهم كانوا يعلمون مدى التنافس والتطاحن بين الايالتين ان لم يكونوا وراء ذلك قبل الاحتلال الفرنسي للجزائر، ورغم ان هذه المعاهدة** لم يكن لها اي مفعول بل انها ظلت مجهولة لدى الكثير من السكان (2). كما اورد احمد باي، الا انها تبين لنا بوضوح موقف الباي التونسي من هذه الاحداث.

لم يكتف باي تونس بهذا الموقف المتواطىء مع الفرنسيين، بل وجه رسائل الى قسنطينة بعضها موجه الى احمد باي شخصيا، وهي — كما يذكر هذا الاخير — كلها تدور حول فكرة واحدة يبدو انها ترسبت في اذهان حكام تونس منذ عهد بعيد وان ((قسنطينة كانت في الازمنة الغابرة جزءا من مملكة تونس)) وكذلك ان باي تونس ((يعتزم استرجاع الوضع القديم)) (3).

---

*. كلوزيل : ولد سنة 1772 وتوفي سنة 1842 تولى القيادة العامة في سبتمبر سنة 1830 الى جانفي 1831 ثم عاد الى الجزائر، وتولى القيادة العامة في جويلية 1835 وعاد منها الى فرنسا في فيفري 1837.

(1) احمد باي (مذكرات) تعريب محمد العربي الزبيري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1973، ص: 21.

**. ابرمت في 18 ديسمبر 1830.

(2) نفس المصدر، ص: 21. واورد حمدان خوجة نصوص هذه المعاهدة، والمتعلقة ببيع المقاطعتين الغربية والشرقية (وهران وقسنطينة) لحكام تونس، وتولية امراء من العائلة الحاكمة في تونس عليها. بشروط اقل ما يقال عنها : انها مخزية لحكام تونس ورغم ذلك وافقوا عليها، اما فرنسا فلم تصادق على هذه المعاهدة مما يبين ان هذه المعاهدة ما هي الا مراوغة من فرنسا لحكام تونس انفسهم.

انظر : حمدان خوجة، المصدر السابق، ص: 263 — 268.

(3) احمد باي، مذكرات، المصدر السابق، ص: 21.

وبورد احمد باي ، ان باي تونس حاول تشويه سمعته تجاه الرأى العام الجزائرى بوصفه اياه بانه مستبد وطاغية ، بل وجه الى الباب العالي رسائل بهذا الشأن ، ورد في احداها :((انكم لا تعلمون ما يجرى في قسنطينة ، ان احمد قد شق عصا الطاعة ، وتلقب بالباشا واعلن عن استقلاله ، انه يضرب النقود باسمه كما لو كان هو سلطان لقسنطينية))[1].

وفي رأى احمد باي أن تلك الوشايات من بين الاسباب التي جعلت الباب العالي يتهاون في ارسال نجداته الى باي قسنطينة للوقوف في وجه الغزو الفرنسي لقسنطينة ، وعندما تأكد الباب العالي من بطلان ادعاءات الباي التونسي ارسلوا النجدات * الى باي قسنطينة ، لكن باي تونس رفض السماح بمرورها[2]. الى الجزائر وهي في وقت احوج ما تكون اليها . وكانت النتيجة الوخيمة هي ابتلاع فرنسا لكل من الايالتين .

---

(1) نفس المصدر ، ص : 32 .

* . وصلت الى تونس اربع سفن محملة بالجنود الاتراك على متنها 12 مدفعا و 150 من رماة المدافع .

(2) نفس المصدر ، نفس الصفحة .

= الفصل الرابع =

Scanned by CamScanner

الفصل الرابع

العلاقات الجزائرية التونسية في المجال العسكري

يمكن القول ان الحروب والمعارك التي وقعت بين الايالتين في الربع الاول من القرن التاسع عشر مرت بفترتين هما :

فترة الاستعداد والتهيؤ من قبل حكام تونس 1790 - 1806 ،

ثم فترة المجابهة العسكرية 1807 - 1817 .

مرحلة الاستعداد والتهيؤ :

استمر باي تونس في مهادنة ومسايرة حكام الجزائر مدة معينة وواصل دفع الالتزامات التي كانت لحكام الجزائر عليه ، وفي نفس الوقت ركز جهده لبناء الحصون والثكنات والابراج العسكرية (1) .

وبعد ان تم كافة الاستعدادات العسكرية ، والاستعدادات الحربية وذلك بالحصول على اكثر ما يمكن من العتاد والسلاح الحربي الاوروبي (2) ، مما ادى (3) تقوية الجيش التونسي ومضاعفة قوة الاسطول خاصة بين 1790 - 799 أعلن حمودة باشا باي تونس عن سياسته المعادية لحكام الجزائر و ((عزمه على حربهم)) (4) .

---

(1) احمد بن ابي الضياف ، المصدر السابق ، ج 3 ، ص : 53 ، اورد تفصيلا دقيقا لتلك الحصون والابراج التي بنيت ، وقد كلف حمودة باشا مهندسا هولنديا ببناء ذلك .
دائرة المعارف الاسلامية ، م 6 ، ص : 44 .

(2) استورد هذه الاسلحة من الدولة العثمانية ، والدانمارك ، والسويد ، وهولندا ، وفرنسا .
Eugene plantet, opcit, P:472.

(3) ميفاء محلوف الامام ، المجلة التاريخية المغربية ، العدد 15 ، 16 ، جويلية 1979 ، ص : 64 - 65 .

(4) احمد بن ابي الضياف ، ج 3 ، ص : 51 .

ويكاد تجمع اغلب المصادر والمراجع ان السبب الذى كان وراء سياسة حمودة باشا في هذا المجال ، هو استعداده لمحاربة الجزائر، حتى ان ((دوفواز)) نفسه اعتقد انه في حالة انهزام الجيش التونسي امام الجيش الجزائرى في ((يوم الفصل)) بينهما مستقبلا ، فان ذلك في نظره سيؤدى الى زيادة توطيد التبعية للجزائر، ويعتقد ان حمودة باشا كل اعتبار سواء في الداخل أو في الخارج ((في حالة احتفاظه بدولته))(1).

بعد ان اتم باي تونس كافة استعداداته ، جمع رجال حاشيته وناقشوا في موضوع اعلانه الحرب ضد الجزائر . ولكن يبدو ان المجتمعين لم يتوصلوا الى رأي معين في هذا الموضوع واتفقوا بالاتفاق على مساعدة باي قسنطينة ((الحاج مصطفى انقليز)) بالرجوع ((لمحل ولايته قسنطينة))(2). كما سبق وان اشرت .

ولعله من الاحسن التعرض الى بعض الاراء التي قيلت حول الاسباب المباشرة وغير المباشرة لهذه الحروب ، بعد ان اوردنا اصولها السياسية .

فالمؤرخ التونسي ابن ابي الضياف يرى ان سبب ذلك يرجع الى تعسف ولاة الجزائر و ((مؤاخذة الغريب بقريبه ، ويدعون السرقة والنهب على اهل المملكة (تونس) ويطلبون غرامتهم بمجرد الدعوى))(3).

اما الحاج احمد الشريف الزهار فيرى ان سبب قيام هذه الحروب يرجع الى رفض حمودة باشا ان يرسل ((مركبا محملا بالزيت وبعض الهدايا الرايجة كل سنة))(4).

اما احمد بن المبارك فيرجع سببها الى غلطة وظلم وكيل الجزائر لرعية تونس. (5)

---

(1) Eugene Plantet , opcit, P: 470

(2) احمد بن ابي الضياف ، المصدر السابق ، ج 3 ، ص : 56 .

(3) نفس المصدر ، ص : 55 .

(4) المصدر السابق ، ص : 96 .

(5) المصدر السابق ، ص : 43 .

ولعل من بين الاسباب — ايضا — التي أدت الى وقوع الصراع بين الايالتين هو هجرة بعض القبائل من الشرق الجزائري المتاخمة للحدود التونسية الى تونس هربا من النظام الحاكم في الجزائر ، والعكس بالنسبة لبعض القبائل التونسية (1)، وكذلك تحرش قبائل البلدين على الحدود وتعدى بعضها على البعض الآخر *.

ويبدو ان تدهور الوضع بين البلدين بدأ عندما اصبح تدخل حكام تونس يأخذ شكل مساعدة مادية ومعنوية للزعماء المحليين الناقمين على الحكم في الجزائر باعتبارهم حلفاء تقليديين لبايات تونس وملوك المغرب الاقصى (2).

ولعل هذا التدخل كان متوقعا لان حكام الجزائر انفسهم كانوا يتدخلون بدورهم في شؤون جيرانهم التونسيين في الظروف المناسبة ولذلك اغتنم حكام تونس الاوضاع المتردية التي كان يمر بها الحكم في الجزائر ، واخذوا شيئا فشيئا يفصحون عن نيتهم تجاه الجزائر ، ويتمثل ذلك في منح حمودة باشا (لباي قسنطينة مصطفى انقليز) حق اللجوء السياسي ، ثم امتناعه عن دفع الاتاوات التي كان يرسلها اسلافه للجزائر (3).

---

(1) هامش 2 ، P : 167 Eugene Plantet, Opcit,

(2) ناصر الدين سعيدوني ، المرجع السابق ، ص : 61.

(3) Vayssattes Recueil, P : 431

* انظر الوثيقة رقم A.G.T.dossier 384, cartons 223,6

من القبائل التونسية : الزغالمة ، شارى ، اولاد بوغانم ، اولاد خيار ، ورغة .. الخ .

اما القبائل الجزائرية مثل النمامشة والحنانشة .

اندلاع الحرب بين الايالتين :

بعد ان فشلت المفاوضات السياسية بين الايالتين اصبح اللجوء الى استخدام القوة امرا لا مفر منه .

يرى البعض ان " حمودة باشا " رغم استعداداته الحربية فانه لزم في اول الامر موقف الدفاع بدل الهجوم (1) الى ان ضربت بارجتان حربيتان جزائريتان الحصار على ميناء حلق الوادي وشلت نشاطه بقصد ارهاب باي تونس واتهامه بتسديد الالتزامات التي في ذمته تجاه داي الجزائر .

ولعل باي تونس اتخذ سياسة اللين مع حكام الجزائر في الفترة التي سبقت سنة 1799 ، اما بعد هذا التاريخ فيبدو ان كل نواياه كانت منصبة على التحضير للحرب ، والدليل على ذلك هو توجيهه للجيش التونسي لغزو بايلك الشرق الجزائري (قسنطينة) مستغلا الظروف الداخلية التي كانت تمر بها الجزائر .

المعارك الحربية :

رغم تلك التهديدات التي وجهها حكام الجزائر لباي تونس ، فانها لم ترهبه بل امر جيشه بالتوجه الى قسنطينة حوالي 25 ديسمبر 1805 (2)

---

(1) رشاد الامام ، المرجع السابق ، ص : 395 .

(2) اختلفت الروايات التاريخية حول عدد هذا الجيش فبعضهم قدره بعشرين الف رجل ، الحنتري ، المجاعات ، ص : 37 .
ومنهم من قدره بـ 50 الف رجل فايسات VAYSSETTES روكاي ، ص : 453 ، MERCIER ، تاريخ قسنطينة ، ص : 321 .
بينما قدره البعض الاخر بـ 40 الف رجل Eugene Plantet ، ص : 470 .
اما احمد بن المبارك فقد بالغ كثيرا في هذا العدد اذ قدره بأنه يزيد على مائة الف . اما المؤرخ التونسي ابن ابي الضياف فلم يذكر احصائية معينة واكتفى بالقول بان هذه الحملة لم يكن احد يشك في انتصارها ، المصدر السابق ج 3 ، ص : 59 .

وحسب رواية ((مرسي MERCIER)) فان الجيش التونسي كان مجهزا من حيث العتاد والعدة[1]. وقد عبر عن ذلك ابن المبارك بعد ان عدد الحمولات وانواع الاسلحة ((وغير ذلك . مما لم يأت به احد قبله))[2]. واعتقد الزهار ان تجهيز " الحملة " التونسية تم سرا[3]، ولعل ذلك استنتاجا منه لكون باي قسنطينة لم يتمكن من الصمود امام هذا الغزو .

الا ان (MERCIER) يرجع سبب انهزام باي قسنطينة وجيشه الى الخطة التي اعتمدها " حسين بن صالح باي " في مقاومة الغزو التونسي والمتمثلة في تمركز الجيش الجزائري في سطح المنصورة ، وعدم ملاقاة الجيش التونسي بعيدا عن المدينة[4].

ولعل ذلك كان فعلا خطأ استيراتيجيا ارتكبه باي قسنطينة .

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه ، ما موقف حكام الجزائر تجاه هذا الاستعداد التونسي ؟ اذ لا شك ان وكلاء الجزائر قد لاحظوا ذلك وابلغوه الى حكامهم ، لكن يبدو ان الوضع الداخلي* الذي كانت تمر به الجزائر لم يسمح لحكامها بالاستعداد الجيد لرد هذا الغزو ، أو لما وقع اصلا . فاغتنم حمودة باشا هذا الوضع وامر جيشه بالتوجه الى قسنطينة تحت قيادة سليمان كاهية الاول** .

---

(1) P : 321 MERCIER , OPCIT;

(2) المصدر السابق ، ص : 52 .

(3) المصدر السابق، ص : 96 .

(4) P : 321 MERCIER OPCIT, ، ويذكر ان الداي ارسل الى باي الاقليم قوات تقدر بأكثر من ثلاثة الاف رجل ، وبذلك بلغ عدد الجيش الذي كان تحت امرة باي قسنطينة حوالي سبعة آلاف من الانكشارية وزواوة ، اضافة الى العدد الكبير من الفرسان الاهالي الذين استدعوا من اجل الوقوف والتصدي لهذا الغزو . ص: 321 .

* . امتاز الوضع الداخلي للجزائر خلال تلك الفترة بعدم الاستقرار وكثرة الثورات والتمرد ضد نظام الحكم ، 1303 ـ 1805 تمرد الحنانشة والنمامشة ، 1304 اندلاع ثورة ابن الاحرش في الشمال القسنطيني ، واستمرت الى غاية 1807 . ثورة درقاوة بالغرب الجزائري 1805 اضافة الى التمردات المتعددة في الوسط والجنوب .

**. وصفه ابن ابي الضياف بقوله :((كان مغفلا بعيدا عن الحزم ، ضعيفا عن حمل ثقل العهدة ، يتوقف في اقل الامور على المشورة)) ج 3 ، ص : 57 .

وسار الجيش التونسي نحو قسنطينة دون ان تعترض طريقه صعوبة كبيرة(1)، وبعد فترة قصيرة (حوالي 11 يناير 1807) - وبالرغم من الثلوج المتراكمة - اقترب من المدينة وتمكن من هزيمة قوات باي الاقليم . ويرى ابن المبارك ان سبب تلك الهزيمة يرجع الى تخاذل وخيانة الجيش الذى كان يقوده الباي(2).

(3) ونتيجة لتلك الهزيمة فر باي قسنطينة الى قصر الطير بنواحي جميلة ، مما فسح المجال امام تقدم القوات التونسية ، وتمكنها من التمركز في أهم النقاط الاستيراتيجية للمدينة*، وبذلك تمكنت من تطويق وحصار المدينة مدة طويلة قدرها بعضهم بثلاثين يوما بلياليها(4).

الا انه يبدو ان مدة الحصار التي فرضها الجيش التونسي على عاصمة بايلك الشرق كانت اطول من ذلك ، اذ ان الحملة التونسية وصلت الى قسنطينة في " حوالي 11 يناير 1807 "، واستمر بقاؤها الى 3 ماي من نفس السنة وهو اليوم الذى هزمت فيه القوات الجزائرية الجيش التونسي في موقعة ((بومرزوق))** وهو ما يبين لنا ان مدة الحصار استغرقت حوالي اربعة اشهر (5) وحتى العنترى نفسه بعد ان يحدد مدة الحصار يردف قائلا ((وطال الحصار)).

---

(1) MERCIER , OPCIT, P : 322

(2) المصدر السابق ، ص : 52 .

(3) العنترى ، فريدة منسية ، ص : 79 . mercier opcit ، ص: 322 .

(*) تمركز الجيش التونسي في هضبة المنصورة ، وكدية عاتي ، كما ان قسطا منه تمركز في منطقة سيدى مبروك عن خطة هذا الحصار ، انظر : احمد بن المبارك ، ص : 52 . 53 . العنترى ، المجاعات ، ص: 37 . Mouloud Gaid, opcit, P : 58

(4) يذكر كل من العنترى والزهار ان مدة الحصار استغرقت مدة ثلاثين يوما بلياليها ، فريدة منسية ، ص : 79 ، المجاعات ، ص : 38 . الزهار ، المصدر السابق ص: 96 . اما حمدان خوجة فيحدد مدة الحصار بسبعة عشر يوما ، ص: 167 .

**. وادى بومرزوق يقع بنواحي قسنطينة ، ويلتقي بوادى الرمال على مقربة منها اتيا من الخروب .

(5) العنترى ، فريدة منسية ، ص : 79 . ويذكر رشاد الامام ان مدة الحصار استغرقت حوالي اربعة اشهر معتمدا في ذلك على وثائق القنصل البريطاني بتونس ، المرجع السابق ص: 395 .

ـ ب ـ

وتمكنه من محاصرة عاصمة البايلك

واذا كان انتصار الجيش التونسي ، ومشاركة الاهالي الشرقي كان نتيجة للاستعدادات التي بذلها حكام تونس ، ولذلك اعتبره البعض التونسيين في اعطاء هذا الهجوم دفعا قويا ، فان المقاومة التي لقيها الجيش بمثابة انتصار للاهالي التونسيين(1) . التونسي من طرف الجزائريين واستماتتهم في الدفاع عن مدينتهم -- رغم غياب الاجهزة الحاكمة -- قد مكنتهم من الاحتفاظ بمدينتهم وعدم تمكن الجيش التونسي من دخولها رغم طول الحصار(2) .

اضف الى ذلك موقع المدينة من حيث مناعتها الطبيعية(8)، وقوة استحكاماتها ، ووقوع الحصار في اشهر باردة .

ويرى حمدان خوجة ان سبب استماتة الجزائريين ، وعدم استسلامهم للجيش التونسي يرجع الى ((انهم كانوا يعرفون حق المعرفة كيف كان تصرفهم في السابق مع تونس، ومتأكدين من ان هؤلاء الاخيرين لن يعاملوهم بالحسنى لو انتصروا عليهم))(4) .

ولذلك استماتوا في الدفاع ، ولم يرعبهم ذلك الحصار اذ كان ((لا يضر اهل البلاد شيئا))(5)، حسب تعبير ابن المبارك .

وفي خضم هذا الحصار التونسي لعاصمة البايلك لم تقف السلطة المركزية في الجزائر مكتوفة الايدى ، بل قامت بارسال تعزيزات ، عسكرية جديدة(6) الى مقر البايلك المحاصر .

---

(1) محمد الهادى الشريف ، المرجع السابق ، ص : 91 .

(2) رركاى ، ص : 434 . يذكر Mercier ان المواطنين Fayssettes لم يكونوا في حاجة الى الباي حتى يدافعوا عن مدينتهم ، ص : 322 .

(3) ابن المبارك ، المصدر السابق ، ص : 53 .

(4) المصدر السابق ، ص : 167 .

(5) ابن المبارك ، المصدر السابق ، ص : 53 .

(6) تمثلت هذه التعزيزات العسكرية في ارسال محلتين عن طريق البر والبحر ، الزهار ، المصدر السابق ، ص : 96 .

ويورد Mercier ان عدد الجيش البرى يقدر بثمانين خيمة ، اما الجيش الذى قدم عن طريق البحر فيقدر عدده بأربعين خيمة ، Histoire de Constantine, P : 324

لكن الملاحظ ان هذه الامدادات لم تصل على جناح السرعة الى مقر الهايلك ، وذلك يرجع الى انهماك الجيش البحري في اخماد تمرد قبيلة فليسة(1).

وبعد ان تم اخضاع هذه القبيلة انضم ثوارها الى " المحلة " بوسار الجميع لفك الحصار المضروب على عاصمة الهايلك(2).

اما النجدة التي ارسلت عن طريق البحر فقد اتجهت الى عنابة اولا ثم الى قسنطينة(3).

ومهما يكن من الاسباب التي ادت الى تأخير هذه النجدات فانها وصلت الى عاصمة الاقليم في سرعة تامة(4) . ووصلت " المحلتان " في يوم واحد مما يدل على ان الامور كانت تتم بتنسيق تام بينهما حتى يتمكنا من تطويق الجيش التونسي .

وحتى يعزز سليمان كاهية موقفه امام هذه النجدات التي ارسلت من الجزائر ، [illegible] الى طلب تعزيزات عسكرية جديدة من حمودة باشا ، الذى لبى طلب قائد قواته الموجودة بقسنطينة ، وارسل له جيشا جديدا تحت امرة " مصطفى انقليز "(5) باي قسنطينة السابق .

التقى الجيشان في المكان المسمى " مجاز لغنم* " ووقعت المعركة بين الطرفين

---

(1) ركاس ، ص : 463 .

(2) مبارك الميلي ، المرجع السابق ، ص : 257 .

(3) الزهار ، المصدر السابق ، ص : 96 .

(4) ركاس ، ص : 484 .

(5) الزهار ، المصدر السابق ، ص : 96 ـ 97 . MERCIER, OPCIT , P :323 .
ويذكر MERCIER ان مصطفى انقليز تمركز بقواته في الموقع الاستيراتيجي " كديـ عاتي " ولا زال هذا المكان يسمى باسم ((الكدية)).

* . ضاحية من ضواحي المدينة تقع في الجنوب الشرقي منها على وادى الرمال ، ولذلك عرفت هذه المعركة بمعركة وادى الرمال . ويبدو ان المعركة كانت بالمنطقة القريبة من الآثار الرومانية الموجودة على ضفة الوادى والتي مازالت قائمة الى حد الآن ، رغم انها لم تحظ بأى عناية من طرف المشرفين على الآثار ، وتركت مهملة .

وقد وصلت الى حد الاقتتال بالسلاح الابيض[1]، وكانت معركة مهولة ، اذ وصف ابن المبارك ذلك المشهد بقوله :((فلا ترى الا يدا طائرة ورأسا مطروحا))[2].

ولعل ذلك ما جعل الجيش التونسي ينسحب الى الوراء قليلا وعسكر في ((بومرزوق)) ، واستمرت المعركة بين الطرفين طيلة ثلاثة أيام انتهت بانتصار الجيش الجزائري[3].

وحتى يحفظ سليمان كاهية ما تبقى له من افراد قواته كان يجب عليه ان يفر بمن معه ليلا . تاركا ارض المعركة ((مغطاة)) بالاموات والثروات التي كانت تحت تصرفه وكل اسلحته*.

ويرجع ابن ابي الضياف سبب انهزام الجيش التونسي الى عدة اسباب[4]:

طول مدة الحصار دون ان يتمكن الجيش التونسي من دخول مدينة قسنطينة ، وضعف قائد الجيش سليمان كاهية ، اضافة الى تخاذل بعض افراد " المحلة " ، وقال :((حتى كأن الهزيمة وقعت بتدبير)) ولعل ذلك من بين الاسباب ، لان حربا كهذه تعتبر بمثابة حرب استنزاف ، وهي اخطر حرب حتى على مستوى عصرنا هذا .

لكن يبدو ان هزيمة الجيش التونسي كانت نتيجة لتطويقه من قبل القوات الجزائرية . ومهما كانت اسباب هذه الهزيمة التي رد على اثرها الجيش التونسي على اعقابه تاركا وراءه ما بين خمسمائة

---

(1) MERCIER , OPCIT, P :324.

(2) المصدر السابق ، ص : 54 .

(3) وقعت المعركة الفاصلة يوم 3 ماي 1807 . العنترى ، فريدة منسية ، ص : 79 ـ 80 .

* . لا شك ان تلك الغنائم كانت كثيرة ومعتبرة ، خاصة اذا علمنا ان حمودة باشا وضع كافة امكاناته في هذه الحملة ، والتي جهز لها طويلا ، وقد وصف العنترى تلك الغنائم بقوله :((من كل شيء نوع متكاثر)) فريدة منسية، ص: 79ـ80

(4) اتحاف اهل الزمان ، ج 3 ، المصدر السابق ، ص : 57 ـ 53 ، ويرى حسن حسنى عبد الوهاب ان سبب الهزيمة يرجع الى تخاذل البدو المرافقين للجيش ، الخلاصة ، المرجع السابق ، ص :189.

وستمائة أسير (1)، ارسلوا صحبة الغنائم التى خلفها الجيش التونسي الى الجزائر *. ثم وجه هؤلاء الاسرى الى تونس عن طريق البحر (2). بالاضافة الى العدد الكثير من القتلى مما أدى بأحدهم الى الاعتقاد بأن حوالي أربعين بغلة محملة بالاذان المقطوعة من جثث القتلى ارسلت الى الجزائر (3).

وبعد انهزام الجيش التونسي قرر الحكام الجزائريون متابعة الجيش التونسي بقيادة حسين بن صالح باي، وحسن آغا بناء على اوامر من الداي (4).

انطلق الجيش الجزائرى تغمره فرحة الانتصار على الجيش التونسي، وسارت تلك القوات حتى وصلت الى حدود ((وادى سراط)) امام مدينة الكاف التونسية (5).

ولعل حسين باي اخطأ عندما أراد محاصرة منطقة الكاف المحصنة، سيما ان باي تونس قد بادر الى ارسال قوات تونسية جديدة تحت قيادة يوسف صاحب الطابع لتعزيز القوة الدفاعية للجيش التونسي (6).

وقد كان حسين باي يجهل فنون الحرب، وارضية الميدان، اضافة الى وجود

---

(1) روكاي، ص: 485، بينما حمدان خوجة يقدر عددهم بـ 500 اسير، المصدر السابق ص: 167. اما ميرسي Mercier فيذكر ان عدد هؤلاء بلغ 1167، ص: 25.

*. يقول الزهار، بأن الاتراك منهم كتبوا في قائمة العسكر، اما الاسرى من العرب فقد حبسوا في برج باب الواد أياما، ثم ارسلوا الى بلادهم، وكان اهل مدينة الجزائر يحسنون اليهم، المصدر السابق، ص: 97. ويذكر MERCIER ان المدافع التي غنمها الجزائريون قد استعملت ضد الفرنسيين اثناء هجومهم على قسنطينة سنة 1836 ـ 1837، ص: 325.

(2) الزهار، نفس المصدر، ص: 97. حمدان خوجة، المصدر السابق ص: 167.

(3) روكاي، ص: 485، P:325 MERCIER , OPCIT , نجد المصدرين قدر كل منهما عدد الجيش التونسي بـ 50 الف، وبعملية احصائية للأذان المحمولة بتقدير وزن ما تحمله البغلة يكون عدد المقتولين ما يقارب اربعين ألف، ولذلك يبدو انه رقم مبالغ فيه...

(4) الزهار، المصدر السبق، ص: 97. (5) روكاي، ص: 487.

(6) روكاي، ص: 487، (فابعلت) وكذلك ميرسيي يقدر عدد الجيش الذى ارسله حمودة باشا لتعزيز قواته بـ 18 ألف رجل، بينما يذكر رشاد الامام أن عدد هذه القوات كان 24 الف مقاتل يتكون من اربعة عشر ألف من الخيالة العرب، ومن عشرة آلاف من المشاة الترك

بعض المتآمرين عليه في صفوف جيشه(1)، كما ان عددا كبيرا من الفلاحين الذين كان يتكون منهم قسم هام من الجيش فضلوا العودة الى مزارعهم للقيام بعملية الحصاد(2). كل ذلك جعل حسين باي وجيشه عرضة للهزيمة .

وبعد ان تمت كافة الترتيبات اللازمة سار الجيش الجزائري صوب الحدود ، التقى الجيشان على مقربة من " وادي سراط " في موقع ((سلاطة)) في 13 جويلية 1807 واشتعلت نار الحرب بينهما واستمر القتال ((مدة ايام وليالي (كذا)))(3).

وقد رجحت كفة المعركة في بداية الامر للجيش الجزائري بالرغم من صمود الجيش التونسي المعتمد على المواقع الحصينة ، الا ان الجيش الجزائري تمكن من زحزحته من مواقعه ولولا لجوء الجيش التونسي الى استخدام سلاح المدفعية بناء على نصيحة " مصطفى انقليز "(4)، لكان النصر حليف الجيش الجزائري .

ويبدو ان الباي حسين قرر مغادرة الميدان مع جيشه ليلا بعد تخاذل ((القوم)) و ((القياد))(5) على خوض المعركة ، والاستمرار في قتال الجيش التونسي .

لعل ذلك يرجع الى شعور هؤلاء بأن هذه الحروب هي من صنع الحكام ، وهي في غير صالح الشعب المغلوب على امره .

---

(1) عند ((مصطفى بن عاشور)) تأخذ فرجيوة الذي كان مرافقا لهذه الحملة بأنه كان على اتصال سري بحمودة باشا من قبل ، وكان يراسله سرا بالخطط التي تدبر ضده في الجزائر ،
انظر : روكاي ، ص : 437 ، لكنه لم يذكر المصدر الذي اعتمد عليه في ذلك .

(2) مبارك الميلي ، المرجع السابق ، ص : 253 .

(3) ابن ابي الضياف ، ج 3 ، المصدر السابق ، ص: 64 ، المعتري ، فريدة منسية ، المصدر السابق ، ص : 30 .

(4) ابن ابي الضياف ، نفس المصدر ، ص : 64 .

(5) يذكر ((Mercier)) ان فرسان فرجيوة بقيادة مصطفى بن عاشور وكذلك كل من ((قوم)) الحراكتة والنمامشة ، انسحبوا من المعركة ، مما اثر على وحدة جيش الباي واجبره على الرجوع ، وعدم الاستمرار في خوض غمار الحرب .

أو لعله تعاطف منهم مع جيرانهم التونسيين ، وانهم كانوا يرون فيهم اناسا يحاربون من اجل المحافظة على استقلال بلادهم . والا كيف نفسر بقاء الاغا صحبة الجيش الانكشارى فقط في ميدان المعركة وانسحاب الاهالي وقوادهم من معركة وادى سراط ؟ مما سهل مهمة الجيش التونسي ، اذ استطاع ان يستولى على مجموعة من الغنائم والاسرى قدروا بحوالي 7000 اسير(1) . وما بين ستمائة وسبعمائة قتيل(2) .

ولعل هذا العدد الهائل من الاسرى والقتلى مبالغ فيه ، لان هذه المعركة لم تستغرق مدة طويلة .

ويبدو ان عدد الاسرى كان جلهم من المدنيين والاطفال والنساء ولان ((المحلة)) كانت تنضم اليها في بعض الاحيان قبائل وأعراش بأكملها ، ولم تكن تقتصر على المحاربين وحدهم(3) .

وقد اتهم حسين بن صالح باي بالتواطؤ مع حكام تونس(4) ، بينما يرى البعض من ذلك ورأى ان اتهامه بالخيانة مجرد افترا ولا اساس له من الصحة(5) .

---

(1) اورد هذا العدد ((DOVOIZ)) في رسالة الى حكومته بتاريخ 15 جويلية 1807 . ويبدو ان هذا العدد مبالغ فيه ، وحتى DOVOIZ نفسه يقول : " 7000 Algeriens ont, parait-il, été faits prisonniers "
Eugene Plantet, Opcit, P: 47I. وبالتالي فهي احصائية مبنية على تخمين

(2) Mercier , opcit, P: 328. ، انظر ايضا رشاد الامام ، المرجع السابق ، ص : 398 ، هامش 1 .

(3) احمد بن المبارك ، المصدر السابق ، ص : 51 — 52 .

(4) الزهار، المصدر السابق ، ص: 97 . وقد اتهمه الاغا بذلك ، وهو ما جعل الداى يقرر اعدامه ، ولعل ذلك يبين لنا ان هذه الحروب التي وقعت بين البلدين كثيرا ما كانت سببا من اسباب التوتر الداخلي لكلا البلدين ، كما يوضح لنا ان قرار الاغوات لدى الدايات كان منفذا ، باعتبار وظيفتهم الثنائية والمتمثلة في رئاسة الحامية في البايلك ومراقبة إعمال الباى .

(5) العنترى ، فريدة منسية ، ص : 30 .

ولعل تخاذل الباي - اضافة الى ما سبق ذكره - يرجع الى كونه غير كفؤ لقيادة مثل هذه العمليات، التي تتطلب شخصية متمرسة في الشؤون العسكرية، وهو ما كان يفتقر اليه حسين بن صالح باي الذى وصفه ابن المبارك بقوله: ((كان حضريا لا يقدر على الصعب))(1).

ومهما يكن فقد دفع حياته ثمنا لهذه الهزيمة، وعين مكانه ((علي باي)) الذى كلفه الداي بتنظيم جيش جديد استعدادا لغزو تونس ((أخذا للثأر)) على حد تعبير المستري (2).

لم يستطع الباي الجديد تنفيذ هذا المشروع وذلك بسبب اغتياله على يد ((احمد شاوش)) الذى نصب نفسه بايا على قسنطينة وأرسل لباي تونس طالبا منه التعامل على اساس حسن الجوار، والتكاتف والتعاون ضد باشا الجزائر (3).

وبعد ان تمكن الداي احمد من اعادة الامور الى نصابها، واغتيال احمد شاوش المتمرد، تهيأ من جديد لمحاربة باي تونس، لكن هذا الاخير لم يكن [illegible] لحظة على ما يدبر ضده من طرف جيرانه، ولذلك فعند ما علم سنة 1808 ان حكام الجزائر يستعدون لمهاجمة تونس جهز محلة" بقيادة يوسف صاحب الطابع وسليمان كاهية الثاني* في 13 جوان 1808 فاجتازا بجيشهما ((وادى سرات)) ولكن لم يتح القتال بين الطرفين وانسحب الجيش الجزائرى نظرا ((لكثرة العسكر))(4) التونسي.

ويبدو ان الداي احمد قرر مهادنة حكام تونس حتى يتفرغ الى الاوضاع الداخلية المتردية التي كانت تمر بها الجزائر.

---

(1) المصدر السابق، ص: 51.

(2) فريدة منسية، ص: 31.

(3) روكاى، ص: 492، وذكر "Mercier"، ان احمد شاوش استطاع ان يكسب (العسكر اليولداش) في صفه وذلك بواسطة توزيعه عليهم الهدايا التي قدمها لهم باي تونس، وهي رواية انفرد بها ميرسيي، ولم يذكر المصدر الذى اعتمده في ذلك وبالتالى فهي رواية في نظرى لا يعتد بها. انظر: Mercier, op.cit., p. 329 - 332

* اطلق عليه اسم كاهية الثاني: تمييزا له عن سليمان كاهية الاول الذى كان قائدا للجيش التونسي في حملته الاولى على قسنطينة، وحصارها مدة زمنية، ثم انهزامه ووفاته بعد ذلك بقليل.

(4) ابن ابي الضياف، المصدر السابق، ج 3، ص: 67.

اما بـاي تونس فقد استغل ذلك الوضع واستمر في عناده ورفضه للانقياد لاوامر حكام الجزائر .

واذا كان لهذه الحروب وقع كبير على الجيش والفئات الشعبية اقتصاديا واجتماعيا بينما كانت هذه الفئات تنبذ تلك الحروب، ووقفت منها دوما موقف المعارض (1) كان الاجهزة الحاكمة في كلا البلدين قد تأثرت بها اشد التأثر ، ففي تونس كان وقع هزيمة الجيش التونسي في المعركة الاولى بقسنطينة شديدا على حمودة باشا نفسه (2).

وربما كان ذلك سبب مرضه الذى صاحبه الى ان توفي في 15 سبتمبر 1814 . ولعلها كانت سببا في وفاة قائد الحملة سليمان كاهية الازل نفسه ايضا .

أما في الجزائر فقد كان ضحية هذه الحروب كل من باي قسنطينة ((حسين باي)) و ((علي بـاي)) اثر ثورة احمد شاوش الذى استغل ذلك الظرف . اما الداى احمد فقد كان من بين الاسباب التي عجلت بقتله على يد الانكشارية هو ابرامه اتفاقية مع باي تونس العدو الالد لحكام الجزائر (3)

وبعد فشل هذه الحملة البرية على تونس، بدأ حكام الجزائر يعدون لمهاجمة تونس بحريا ، اذ تم تجهيز قسم من الاسطول ليقوم بتلك المهمة ، وقد قام الرايس حميدو* بدور رئيس في تلك المهمة ابتداء من نهاية سنة 1808 .

---

(1) يذكر حمدان خوجة ان ((الاشراف)) ولعله يقصد بعم فئة الاعيان ووجهاء القوم كانوا دائما يستنكرون هذه الحروب الا انهم لم يستطيعوا ((اصلاح ما وقع من ضرر)) المصدر السابق ، ص: 164 .

(2) ابن ابي الضياف ، المصدر السابق ، ج 3 ، ص : 59 .

(3) في رسالة بعث بها DOVOIZ الى حكومته في 2 نوفمبر 1808 يقول فيها ((لقد تم الاتفاق على السلم بين الايالتين التونسية والجزائرية))

Eugene Plantet, opcit, P:478

ولم اعثر على بنود هذه الاتفاقية في المصادر والمراجع التي تمكنت من الاطلاع عليه.

* حول هذه الشخصية انظر البير دوفال ، الرايس حميدو ، تعريب محمد العربي الزبيرى ، مطبعة بن بولعيد ، الجزائر ، بدون تاريخ .

لم يستسغ الباب العالي ذلك الموقف من داى الجزائر ، وتم ارسال قابوجي باشي ((محمود آغا)) اليه يأمره بالكف عن محاربة جيرانه ، وتوصيته بحسن الجوار ، وحثه على ابرام الصلح بين البلدين (1).

الا ان الداى الحاج على رفض هذا الامر (كما سبق) ، ورد على المبعوث العثماني باطلاق النيران عليه من القلعة امام ميناء الجزائر (2).

ونتيجة لهذا الموقف استمرت حالة الحرب بين الايالتين ؛ وتمكنت قطع من الاسطول الجزائرى من فرض الحصار على منطقة حلق الوادى لتفرض من جديد سيادة الجزائر على جارتها تونس، ولتتسلم حمولة الزيت المتفق عليها بموجب الاتفاق الذى ابرم بين البلدين سنة 1756 (3).

قدرت تلك القوات البحرية الجزائرية بست سفن حربية ، واربع قاذفات (4).

أما الاسطول التونسي فكان يشتمل على اثناء عشر سفينة .

وتمكنت القوة البحرية الجزائرية من الانتصار على القوة البحرية التونسية خلال تلك المعركة البحرية التي وقعت في 22 ماي 1811 ، دامت ست ساعات ، كلفت البحرية الجزائرية 40 قتيلا ، اما الجانب التونسي فقدر عدد موتاه بـ 230 قتيلا (5).

ويرى ابن ابي الضياف ان سبب تلك الهزيمة التي مني بها الاسطول التونسي يرجع الى تخاذل البحارة التونسيين وانسحابهم من المعركة ، لانهم انتشوا من تقديم ((ارناؤوطلى))* عليهم (6).

---

(1) عبد الجليل التميمي ، المرجع السابق ، ص : 236 .

(2) نفس المرجع ، نفس الصفحة .

(3) مولاى بلحميس ، المرجع السابق ، ص : 33 .

(4) البيردوفال ، المرجع السابق ، ص : 35 . عبد الجليل التميمي ، المرجع السابق ، ص: 335 هامش 9 . اما الزهار فيذكر ان عدد السفن الجزائرية كان ستة عشر مركبا ، المرجع السابق ، ص : 107 .

(5) البيردوفال ، المرجع السابق ، ص : 35 . عبد الجليل التميمي ، المرجع السابق ، ص : 235 ، هامش 9 .

* نسبة الى بلاد الارناؤوط بألبانيا ، والمقصود به هنا ، هو الرايس التونسي محمد المورالي الذى اسر خلال هذه المعركة البحرية على متن سفينته من قبل الاسطول الجزائرى .

(6) المصدر السابق ، ج 3 ، ص : 67 .